الباب الخامس

الغزوات والسرايا

بلغت الغزوات التي غزاها الرسول ﷺ سبعا وعشرين غزوة، وكان ما قاتل فيها تسعا هي: بدر القتال، واحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف.

وكانت السرايا سبعا وأربعين سرية وهذا ما أثبته الواقدي في مغازيه.

ويقال قاتل في بني النضير، ولكن الله جعلها نفلا خاصة، وقاتل في غزوة وادي القرىٰ في منصرفه عن خيبر، وقتل بعض أصحابه وقاتل في الغابة حتىٰ قتل محرز بن نضلة، وقتل من العدو ستة.

الغزوات: غزوة الأبواء، غزوة بواط، غزوة بدر الأولىٰ غزوة ذي العشيرة بدر القتال، غزوة قينقاع، غزوة السويق، غزوة بني سليم غزوة غطفان، غزوة بني سليم ببحران، غزوة أحد، غزوة حمراء الأسد، غزوة الرجيع، غزوة بني النضير غزوة بدر الموعد، غزوة ذات الرقاع، غزوة دومة الجندل، غزوة المريسيع، غزوة الخندق، غزوة بني قريظة، غزوة بني لحيان، غزوة الغابة، غزوة خيبر، غزوة وادي القري، غزوة فتح مكة، غزوة حنين، غزوة الطائف، غزوة تبوك[1]، من المصطلحات المعروفة أن كل معركة شارك فيها الرسول ﷺ تسمي غزوة، اما التي لم يشارك فيها فتسمي سرية. أو حملة.

سرية حمزه بن عبد المطلب إلى سيف البحر ناحية العيص:

أول لواء عقده رسول الله ﷺ لحمزه بن عبد المطلب رضي الله عنه في شهر رمضان علي رأس سبعة أشهر من هجرة النبي ﷺ. وقد بعثهم في ثلاثين راكبا نصفهم من المهاجرين ونصفهم

(1) المغازي: محمد بن عمر الواقدي ج1 ص 6 – تحقيق دمارسدن جونس موسسة الأعلمي بيروت.

من الأنصار لاعتراض عير قريش، وتقول بعض المصادر. كانوا كلهم من المهاجرين، وهو ما أثبتته اغلب المصادر. فبلغوا سيف البحر لاعتراض العير التي جاءت من الشام تريد مكة وفيها أبو جهل في ثلاثمائة راكب. والتقوا حتى اصطفوا للقتال فمشي بينهم مجدي بن عمرو وكان حليفا للفريقين جميعا، ولم يزل يبذل جهده بين الفريقين حتى انتهي الأمر بدون قتال، ورجع حمزه ﷺ إلى المدينة، وذهبت العير إلى مكة. ولما رجع حمزه إلى الرسول ﷺ اخبره الخبر، وأن مجدي بن عمرو رأوا منه نصفة لهم، ثم اقبل عدد من قوم مجدي علي النبي ﷺ فأكرمهم[1].

سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ:

عقد رسول الله ﷺ لواء عبيدة بن الحارث في شوال علي رأس ثمانية أشهر إلى رابغ على عشرة أميال من الجحفة، أي ستة عشر كيلومترا في اتجاه قديد وخرج في ستين راكباً، فلقي أبا سفيان بن حرب علي ماء وأبو سفيان في مائتين.

ونثر سعد بن أبي وقاص ﷺ كنانته – وكان رامياً ماهراً، وتقدم فرمي ما بكنانته – حتى أفناها، وما فيها سهم إلا أصاب حتى فرغت الكنانة، وكان فيها عشرون سهماً.

ولم يسلوا السيوف ولم يصطفوا للقتال، أكثر من هذا الرمي والمناوشة، ثم انصرفوا.

وكان سعد ﷺ أول من رمى بسهم في الإسلام، وكان الستون كلهم من المهاجرين لأن الرسول ﷺ لم يرد أن يخرج الأنصار وقد تعهدوا بنصره داخل ديارهم.

وقال سعد لعبيدة بن الحارث لو اتبعناهم لأصبناهم؛ فإنهم قد ولوا مرعوبين، فلم يتابعه علي ذلك ورجعوا إلى المدينة[2].

سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار:

في ذي القعدة علي رأس تسعة أشهر من هجرته ﷺ عقد لواء لسعد بن أبي وقاص ﷺ إلى الخرار وهي من الجحفة قريبة من خم.

---

(1) الكتانة: كيس السهام.

(2) المراجع السابقة.

وأمره الرسول ﷺ بالخروج إلى الخرار لأن عيراً لقريش ستمر به فخرج في عشرين رجلا أو واحداً وعشرين على أقدامهم فكانوا يمشون ليلا ويكمنون نهاراً، حتى صبحوا المكان بعد مسير خمس ليال، ووجدوا أن العير قد مرت في اليوم الذي سبق وصولهم المكان.

وقال سعد: لولا أن الرسول ﷺ أوصاني ألا أجاوز الخرار لأدركتهم.

غزوة الابواء [1]: صفر سنة 1

غزا رسول الله ﷺ في صفر علي رأس أحد عشر شهرا حتى بلغ الأبواء، وقد خرج بنفسه يعترض عير قريش فلم يلق كيدا وفي هذه الغزوة وادع بني ضمره من كنانة علي ألا يعينوا عليه أحدا، ثم كتب بيهم كتابا ثم رجع وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وهي في سيرة ابن هشام باسم غزوة العشيرة[2].

غزوة بواط[3]: ربيع الأول سنة 1

في شهر ربيع الأول علي رأس ثلاثة عشر شهراً من وصوله ﷺ إلى المدينة غزا غزوة الأبواط يعترض عيرا لقريش فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير ثم رجع ولم يلق كيدا ولم يحدث قتال.

غزوة بدر الأولى أو صفوان:

بعد رجوع الرسول ﷺ من غزوة العشيرة بليال لا تبلغ العشر إغار كرز بن جابر الفهري علي سرح المدينة فخرج ﷺ في طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز بن جابر فلم يدركه، وهي غزوة بدر الأولى ثم رجع ﷺ [4].

---

(1) الابواء: قرية من اعمال المدينة بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلا والمغازى ج1ص11.

(2) ج1ص395.

(3) بواط حبال ضبه من ناحية ذى خشب وهي جبل من جبال جهينه قرب ينبع على بعد ثلاثة أو اربعة برد من المدينة (من 60الى80 كم).

(4) سيرة ابن هشام ج1 ص397.

سرية نخلة أو سرية عبد الله بن جحش[1]

في رجب علي رأس سبعة عشر شهراً بعث رسول الله ﷺ سرية أمر عليها عبد الله بن جحش إلى نخلة وادي بستان عبيد الله بن معمر ويروي عبد الله بن جحش ذلك فيقول: دعاني رسول الله ﷺ حين صلي العشاء فقال: واف مع الصبح، معك سلاحك أبعثك وجها. فوافيت الصبح، وعلي سيفي وقوسي وجعبتي، ومعي درقتي، فصلي النبي ﷺ بالناس ثم انصرف فوجدني قد سبقته واقفاً عند بابه، ووجدت نفرا معي من قريش (المهاجرين) فدعا رسول الله ﷺ أبي بن كعب فدخل عليه فأمره رسول الله ﷺ وكتب كتابا (كتبه أبي بن كعب) ثم دعاني فأعطاني صحيفة من أديم خولاني[2] فقال: قد استعملتك علي هؤلاء النفر، فأمض حتى إذا سرت ليلتين فانشر كتابي، ثم امض لما فيه. قلت يا رسول الله: أي ناحية؟ فقال: اسلك النجدين تؤم ركية[3] فانطلقت حتى إذا كنت ببئر ابن ضميرية نشرت الكتاب فقرأته فإذا فيه: سر حتى تأتي بطن نخلة علي اسم الله وبركاته، ولا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك، وامض لا مري في من تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش. فلما قرأت عليهم الكتاب قلت: لست مستكرهاً منكم أحداً فمن كان يريد الشهادة فليمض لأمر رسول الله ﷺ ومن أراد الرجعة فمن الآن. فقالوا أجمعون: نحن سامعون ومطيعون لله ورسوله ولك، فسر علي بركة الله حيث شئت. فسرت حتى جئت نخلة فوجدت عيرا لقريش فيها: عمرو بن الحضرمي، والحكم بن كيسان المخزومي، ونوفل بن عبد الله المخزومي فلما رأونا هابونا وأنكروا أمرنا، فحلق عامر راس عكاشة ورأي واقد بن عبد الله وعكاشة أن يغيروا عليهم فقال لهم عمار نحن في شهر حرام فقال المشركون: لا باس وامنوا في أنفسهم. وقيدوا ركابهم وسرحوها وصنعوا طعاماً.

وتشاور أصحاب الرسول ﷺ في أمرهم وكان آخر يوم من رجب، ويقال أول يوم من شعبان فقالوا: إن أخرتم عنهم هذا اليوم دخلنا الحرام فامتنعوا، وان أصبتموهم ففي الشهر الحرام، وقال قائل: لا ندري امن الشهر الحرام هذا اليوم أم لا؟ وقال قائل لا نعلم هذا اليوم

---

(1) في المغازى سرية نخلة وفي سيرة ابن هشام سرية عبد الله بن جحش .

(2) الاديم: الجلد والخولان من مخاليف اليمن وهي أيضاً قرية قرب دمشق وهو منسوب إلى احداهما.

(3) الركيه: البئر.

إلا من الشهر الحرام، ولن نري أن تستحلوه لطمع أشفيتم عليه، فغلب علي الأمر الذين يريدون عرض الدنيا فشجع القوم فقاتلوهم، فخرج واقد بن عبد الله يقدم القوم، قد انبض قوسه، وفوق بسهمه فرمي عمرو بن الحضرمي فقتله[1]، وشد القوم عليهم، فاستاسر عثمان بن عبد الله بن المغيرة، وحكم به كيسان، وأعجزهم نوفل بن عبد الله بن المغيرة[2] واستاقوا العير.

وقال المقداد بن عمرو انه اسر الحكم بن كيسان فأراد أمير السرية ضرب عنقه فقلت دعه: تقدم به علىٰ رسول الله ﷺ وجعل الرسول يدعوه إلىٰ الإسلام وأطال عليه فقال عمر بن الخطاب دعني اضرب عنقه، والرسول ﷺ لا يقبل علي عمر حتىٰ أسلم الحكم وحسن إسلامه وقتل شهيدا يوم بئر معونة، ولما اسلم التفت الرسول ﷺ إلىٰ أصحابه فقال: لو أطعتكم فيه آنفا فقتلته دخل النار.

وقدموا بالعير علي الرسول ﷺ وقال المشركون إن محمدا قاتل في الشهر الحرام وقد كان يعظمه ورد عليهم بعض المسلمين بقولهم إنما أصبتم في شعبان.

ووقف الرسول ﷺ العير ولم يأخذ منها شيئا وقال لأصحابه: ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام وحبس الأسيرين. وأرسلت قريش في فداء الأسيرين، ولكن الرسول ﷺ قال: لن نفديهما حتىٰ يقدم صاحبانا يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان اللذين خرجا مع السرية وضل بعيرهما وذهبا في طلبه، ولم يرجعا ولم يشهدا نخلة ولما رجعا إلىٰ المدينة بعد أيام أخذ الفداء أربعين أوقية فضة لكل واحد والأوقية أربعون درهماً- وقال لو قتلتم صاحبي قتلت صاحبكم.

ويروىٰ أن النبي ﷺ وقف غنائم أهل نخلة إلىٰ ما بعد غزوة بدر فلما رجع من بدر قسمها مع غنائم بدر[3].

والعبارة التي تثير الاستفهام فيما أثبته الواقدي هي: «وتشاور أصحاب الرسول ﷺ في أمرهم وكان آخر يوم من رجب ويقال أول يوم من شعبان فقالوا: إن أخرتم عنهم هذا اليوم دخلوا الحرم فامتنعوا، وان أصبتموهم ففي الشهر الحرام».

---

(1) انظر أسباب النزول ص74 ولآية 217 من سورة البقرة: {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه} وقد نزلت بهذا السبب.

(2) نوفل بن عبد الله المخزومي كما سبق وليس المغيره كما جاء بالمغازىٰ.

(3) المغازىٰ ج1ص18 .

وإذا كان وصولهم إلى عير قريش كان آخر يوم من رجب فكيف يكون تأخيرهم يوما سببا في إدخالهم في الحرم؟ والصحيح أن تأخيرهم يخرجهم من الحرم إلى الحل بدخول شهر شعبان. وإذا كان وصولهم أول شعبان كما قيل فشهر شعبان ليس من الأشهر الحرم أما قولهم وان أصبتموهم ففي الشهر الحرام فهو قول معقول إذا كانوا قد التقوا في آخر يوم من رجب، ولكن لا معني لقول من قال إن أخرتم عنهم هذا اليوم دخلوا الحرم كما سبق لأن اليوم يخرجهم لا يدخلهم.

ومما يؤيد إنهم التقوا آخر رجب أمران: الأمر الأول: تردد أصحاب الرسول بين قائل لا ندري أمن الشهر الحرام هذا اليوم أم لا؟وبين من يقول لا نعلم هذا اليوم إلا من الشهر الحرام. وهذا يعني أن اللقاء كان أخر رجب، وهذا ما أثار الشك في أن يكون هذا هو آخر يوم من رجب أو أول يوم من شعبان كما يشير إلى ذلك تردد الصحابة.

الأمر الثاني: قول الرسول ﷺ لصحابته الذين كانوا في السرية ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام.

ومن العبر في هذه السرايا والغزوات:

1- وإن كانت هذه السرايا والغزوات محدودة، ولم يقع فيها قتال إلا في سرية نخلة فإن فيها ما يجعل المشركين من قريش يدركون بأن المسلمين عازمون علي استرداد ما يمكنهم استرداده من أموالهم التي تركوها في مكة، ومن العبر أيضاً أن النبي أمر عبد الله بن جحش ألا يكره أحداً على الخروج معه في سرية نخلة.

2- كانت غزوة الأبواء خيراً على المسلمين حيث عقد فيها الرسول ﷺ حلفا مع بني ضمرة على ألا يعينوا عليه أحدا فكسب حيادهم بدلا من كونهم كانوا عليه، وربما يكونون معه

3- كان موقف مجدي بن عمرو وسيطا بين المشركين والمسلمين في سرية حمزه نصراً معنوياً كبيراً للمسلمين حيث جعلهم علي قلة عددهم على قدم المساواة مع الكثرة من قريش وقدر الرسول ﷺ هذا الموقف فأكرم الرجال الذين قدموا إليه من قوم مجدي بن عمرو.

4- تعتبر سرية عبيدة بن الحارث قد عادت منتصرة حيث إن سعد بن أبي وقاص أول رام في

الإسلام قد افرغ كنانته وأصاب بسهامه العشرين حتىٰ ولي المشركون مرعوبين، ولولا أن عبيدة منع سعداً من ملاحقتهم للاحقهم.

5- في ملاحقة الرسول ﷺ لكرز بن جابر الفهري في غزوة سفوان أو بدر الأولىٰ دليل علىٰ أن المسلمين قادرون علىٰ حماية أموالهم ومواشيهم، وأن علىٰ من أراد الاعتداء عليهم أن يفكر في عواقب ذلك.

6- النهي عن العجلة والتسرع في الحكم فقد اعترض الرسول علىٰ عمر عندما كان الحكم بن كيسان يتلكأ في قبول الإسلام، ولما أسلم قال لهم الرسول ﷺ: لو أطعتكم فيه آنفا فقتلته دخل النار. وكان عمر يريد أن يضربه بسيفه

7- أما ما وقع في سرية نخلة فإن المشركين لا يعرفون أبدا حرمة حقيقية للشهر الحرام، وإنما يتخذون ذلك ذريعة لحماية أنفسهم فقط، ولو كانوا يقيمون للاماكن حرمتها لما آذوا رسوله ﷺ ومن آمن معه في البيت الحرام، وأخرجوهم بدون حق.

8- كانت هذه السرايا تدريباً للمسلمين أشبه ما يسمي الآن بالمناورات استعداداً للمستقبل.

غزوة بدر الكبرى[1] (ذو الحجة 17 رمضان السنة الثانية)

غزوة بدر هي أول غزوة حدث فيها قتال بين المسلمين والمشركين، ونزل القرآن الكريم في هذه الغزوة العظيمة وقد تضمنت سورة الأنفال آيات كثيرة تتحدث عن هذه الغزوة التي نصر الله فيها القلة المؤمنة علي الكثرة الكافرة وقد تحيَّن رسول الله ﷺ انصراف العير من الشام حيث ندب أصحابه للعير فبعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد قبل خروجه من المدينة بعشر ليال يتحسسان[2] العير.

ومضيا حتىٰ نزلا علىٰ كشد الجهني بالنخبار علي الساحل، فاجارهما واخفاهما حتىٰ مرت العير، ورفع طلحة وسعيد علي نشر من الأرض فنظر إلىٰ القوم، وكان أهل العير

(1) وتسمىٰ بدر القتال.

(2) قال السهيلي: التحسس بالحاء ان تتسمع الاخبار بنفسك، والتجسس بالجيم إن تفحص عنها بغيرك (الروض الانف ج2ص61)والنخبار من وراء ذىٰ المروة علىٰ الساحل.

يقولون: يا كشد هل رأيت أحدا من عيون محمد؟ فيقول: واني عيون محمد من النخبار؟

ولما ذهبت العير ورصداها رجعا صحبة كشد ولقوا الرسول ﷺ علي مرحلة من المدينة بموقع يسمي تربان واخبر طلحة وسعيد الرسول ﷺ بإجارة كشد لهما فحياه الرسول علي ذلك وقال له: ألا اقطع لك ينبع؟ فقال إني كبير ولقد نفذ عمري ولكن اقطعها لابن أخي فقطعها له[1].

وندب رسول الله ﷺ المسلمين وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم لعل الله يغنمكموها فأسرع من أسرع حتى كان الرجل يساهم أباه في الخروج فكان ممن ساهم سعد بن خيثمة وأبوه - حيث اقترعا في الخروج إلى بدر لملاقاة العير - وقال سعد لأبيه لو كان غير الجنة آثرتك به، واني لأرجو الشهادة في وجهي هذا - لأنه يعلم أن قتالا سيحدث بينهم وبين من يحرس القافلة، واستهما فخرج سهم ابنه سعد، وقد جاء بالقواعد الفقهية: (يكره الإيثار في القربة) وأبطأ عن النبي ﷺ عدد كبير كرهوا الخروج وملاقاة العير وكان ممن ابطا أسيد بن حضير. وعندما رجع الرسول ﷺ منتصراً في بدر قال له أسيد: الحمد لله الذي أسرك وأظهرك على عدوك، والذي بعثك بالحق ما تخلفت عنك رغبة بنفسي عن نفسك، ولا ضننت انك تلاقي عدواً، ولا ظننت إلا أنها العير فقال له رسول الله ﷺ: صدقت[2].

وفي سبب نزول قوله تعالى {كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون}[3].

اخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت، ما ترون فيها؟ لعل الله يغنمناها ويسلمنا، فخرجنا فسرنا يوماً أو يومين فقال: ما ترون فيهم فقلنا يا رسول الله: ما لنا طاقة بقتال القوم إنما خرجنا للعير، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»، فانزل الله الآية، واخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه[4].

---

(1) المغازي ج1ص20.

(2) المصدر السابق ص21.

(3) الانفال الآية 5.

(4) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي 210

وخرج الرسول ﷺ بمن معه عشية الأحد لاثنتي عشرة خلت من رمضان من السنة الثانية من قدومه المدينة وكان معه من المسلمين ثلاثمائة وخمسة رجال وكانت الإبل سبعين بعيرا، وكانوا يتعاقبون الإبل، الاثنان والثلاثة والأربعة ومعهم فرسان[1].

وكان الرسول ﷺ حين غادر بيوت السقيا بالمدينة يدعو: اللهم إنهم حفاة فاحملهم، وعراة فاكسهم، وجياع فأشبعهم، وعالة فاعنهم من فضلك.

وقال سعد بن أبي وقاص: فما رجع أحد منهم يريد أن يركب إلا وجد ظهرا للرجل البعير والبعيران، واكتسى من كان عاريا وأصابوا طعاما من زوادهم، وأصابوا فداء الأسرى فأغنى الله به كل عائل[2].

وسمع أبو سفيان بأن محمدا وأصحابه يتحسسون العير فاستأجر ضمضم به عمرو الغفاري وبعثه إلى مكة يستنفر المشركين لحماية أموالهم[3] ولم يبق أحد من مشركي مكة ألا تجهز للخروج.

ولما سمع رسول الله ﷺ بخروج قريش استشار أصحابه، فقام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله: امض لأمر الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها {اذهب أنت وربك فقاتلناها هنا قاعدون}[4] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إننا معكم مقاتلون والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[5] لسرنا معك فقال له الرسول ﷺ خيراً ودعا له بخير ثم قال: أشيروا إلى أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وكان يضن إن الأنصار لا تنصره إلا في الدار (أي داخل المدينة). فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أجيبك عن الأنصار كأنك يا رسول الله تريدنا. قال أجل. فقال: انك

(1) ويقال ثلاث.

(2) المغازي ج1ص26.

(3) سيرة ابن هشام ج1ص401.

(4) المائدة الآية 24

(5) برك الغماد: من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر وهو على ثمان ليال من مكة إلى اليمن أي كنايه عن البعد فهم مستعدون مهما بعد المكان.

عسى أن تكون خرجت عن أمر قد أوحي إليك في غيره، وإنا قد أمنا بك، وصدقناك وشهدنا أن كل ما جئت به هو حق، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض يا نبي الله، فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما بقي منا رجل، وصل من شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت والذي نفسي بيده، ما سلكت هذا الطريق قط، ومالي بها من علم، وما نكره أن يلقانا عدونا غدا وأنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك [1]. ثم قال: يا رسول الله: إنا قد خلفنا من قومنا قوماً ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولا أطوع لك منهم، لهم رغبة في الجهاد ونية، ولكن إنما ظنوا أنها العير. نبني لك عريشا فنكون فيه، ونعد لك رواحلك، ثم نلقي عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا علي عدونا ذلك ما أحببنا، وان تكن الأخرى جلست علي رواحلك فلحقت من وراءنا فقال له النبي ﷺ خيراً وقال: أو يقضي الله خيرا من ذلك يا سعد[2] ثم قال رسول الله ﷺ: سيروا وابشروا أن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكاني الآن انظر إلى مصارع القوم[3] .

الاستطلاع والترقب:

وقبل الوصول إلى بدر خرج الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى وقفا علي شيخ من العرب فسأله الرسول ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك. قال: إذاك بذاك؟ قال: نعم قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا فإن كان صدق الذي اخبرني فهم اليوم بمكان كذا للمكان الذي به رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا للمكان الذي فيه قريش فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء. ثم انصرف عنه، فاخذ الشيخ يقول: من ماء، امن ماء العراق؟.

---

(1) المغازي ج1ص49 وسيرة ابن هشام ج1ص408.

(2) المغازى ج1ص49. وسيرة ابن هشام ج1ص2/ 4.

(3) سيرة ابن هشام ج1ص408 .

ثم بعث رسول الله ﷺ في المساء علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر، يلتمسون الخبر له على المكان، ووجدوا رجلين من قريش على الماء فاتوا بهما إلى النبي ﷺ وقال لهما: اخبراني عن قريش. قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى العدوة القصوى. فقال لهما ﷺ: كم القوم؟ قالا: كثير قال: ماعدتهم فقالا: لا ندري. قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوما تسعا ويوما عشرا فقال رسول الله ﷺ: القوم فيما بين التسعمائة والألف، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قال: عتبة بن ربيعة وشيبه بن ربيعة وأبو النختري بن هشام وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنظر بن الحارث وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبدود. فاقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم افلاذ [1] كبدها.

وعرف أبو سفيان باعتراض محمد وصحبه فغير طريقه واخذ بها جهة الساحل، ونجت العير. ولما رأى انه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش أن ارجعوا. فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نشهد بدرا، وتسمع العرب بمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا.

وقال الأخنس به شريق حليف أبي زهرة: قد ينجي الله لكم أموالكم فارجعوا فرجعوا ولم يشهدوا بدرا وكذلك لم يحضرها من بني عدي بن كعب أحد. أما أبقيه بطون مكة فقد شاركت كلها وما من بطن إلا نفر منهم ناس ولم يخرج أبو لهب واخرج بدله العاص بن هشام بدين له عليه.

كما رجع طالب بن أبي طالب ومن معه عندما قال له نفر من قريش والله قد عرفنا يابني هاشم، وان خرجتم معنا إن هواكم لمع محمد.

ونزل المشركون بالعدوة القصوى ونزل الرسول ﷺ بالعدوة الدنيا «أي الأقرب إلى المدينة»، وأرسل الله غيثا لبد الأرض أمام المسلمين ولم يمنعهم من السير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه وهذا ما ثبت بالقرآن الكريم في سورة الأنفال: {إذ

(1) افلاذ: قطع. وانظر سيرة ابن هشام ج1ص408 ومابعدها والمغازي ج1ص50 ومابعدها.

يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليربط علي قلوبكم ويثبت به الأقدام}[1].

وجاء الحباب بن المنذر إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل منزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال يا رسول الله فانهض بالناس حتى تأتي ادني ماء من القوم فتزله ثم نغور[2] ما وراءه من القلب الآبار ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فقال ﷺ: لقد أشرت بالرأي فنهض ومن معه من الناس، ونفذوا ما أشار إليه الحباب. واقبل نفر من قريش حتى وردوا الحوض الذي ملاه المسلمون وقال الرسول ﷺ: دعوهم فما شرب منه واحد منهم إلا قتل إلا حكيم بن حزام الذي أسلم فيما بعد، فكان إذا اقسم قال: والذي نجاني يوم بدر. وأرسل المشركون عمير بن وهب الجمحي ليحرز عدد المسلمين فجال بفرسه ثم رجع فقال ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون؛ ولكنه طلب أن يمهلوه؛ ليرى هل لهم كمين أو مدد فذهب حتى ابعد ثم رجع فقال: ما وجدت شيئا ولكن رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم إلا قتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟

وحاول حكيم بن حزام إقناع عتبة بن ربيعة باعتباره كبير قريش وسيدها ولكنه فشل أمام إصرار أبي جهل.

واستعرض رسول الله ﷺ الصفوف ويروى أن عمير بن أبي وقاص كان يتوارى عن الرسول حتى لا يراه فيستصغره ولا يقبله، وهو راغب في القتال لعل الله يرزقه الشهادة. وعندما رده رسول الله ﷺ لصغر سنه بكى فأجازه ﷺ وكان أخوه سعد بن أبي وقاص يقول: كنت أعقد له حمائل سيفه من صغره، واستشهد فكان اصغر شهيد في بدر وعمره ست

(1) الانفال الآية 11.

(2) نغور: ندفن أو نطمس.

عشرة سنة[1] كما رد لصغر السن عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ورافع بن البراء بن عازب وأسيد بن حضير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت

وبعد أن استعرض الرسول ﷺ صحابته دخل العريش ودعا ربه: اللهم انك أنزلت علي الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني إحدى الطائفتين، وأنت لا تخلف الميعاد، اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك اللهم نصرك الذي وعدتني، اللهم احنهم الغداة. اللهم أن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد. وأبو بكر يقول يا نبي الله: بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك قد خفق رسول الله خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر: أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده، علي ثناياه النقع[2].

وأخذ الرسول ﷺ يحرض المؤمنين علي القتال وهو يقول: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبرا إلا أدخله الله الجنة.

بداية القتال:

خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي وكان شرساً سيء الخلق فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه أو لأموتن دونه، فخرج إليه حمزه بن عبد المطلب رضي الله عنه، فضربه حمزه فاذهب نصف ساقه فوقع على ظهره والدم يشخب منه إلا انه حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبر بيمينه، واتبعه حمزه فضربه حتى قتله علي الحوض.

ثم خرج عتبه بن ربيعة بين أخيه شيبه وابنه الوليد ودعا إلى المبارزة فخرج إليه ثلاثة من الأنصار وهم: عوف ومعوذ ابنا الحارث ويقال إن الثالث عبد الله بن رواحة فقال لهم عتبة من انتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار. فقالوا لهم ما لنا بكم من حاجة، وقال ابن إسحاق قالوا لهم: أكفاء كرام إنما نريد قومنا. ثم نادوا يا محمد: اخرج إلينا اكفاءنا من قومنا فأخرج إليهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وحمزه بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم فلما دنوا منهم وسألوهم قالوا: أكفاء كرام فبارز عبيدة بن الحارث عتبة بن ربيعة وجرح كلاهما

(1) المغازى ج1ص21.

(2) النقع: الغبار

صاحبه وبارز حمزه شيبة بن ربيعة فقتله وبارز علي الوليد بن عتبة فقتله ثم كر حمزه وعلي رضي الله عنهما على عتبة فذففا عليه وعجلا بقتله. وعلا التكبيربين المسلمين فكانت بداية مشؤومة على المشركين، وقد استشهد عبيده رضي الله عنه متأثراً بجرحه[1] واستجاب المسلمون جميعا لتحريض رسول الله ﷺ، وحبب تحريضه الشهادة إليهم، فاخذوا –يتسابقون لنيل الشهادة ويفوزوا بها وقد سمعوا قوله ﷺ والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة

وقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن، (بخ، بخ)[2] أفما بيني وبين أن ادخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده، وقال: لئن بقيت إلى أن آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة، واخذ سيفه وقاتل حتى قتل شهيدا.

ويروي أن عوف بن الحارث قال: يا رسول الله ما يرضي العبد من ربه؟ فقال ﷺ غمسه يده في العدو حاسرا فنزع درعا كانت عليه فقذفها، وقاتل القوم حتى قتل شهيدا.

واخذ رسول الله ﷺ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ثم قال: شاهت الوجوه ثم نفخهم بها، وقال للمسلمين شدوا. فكانت هزيمة المشركين.

ونزلت في هذه الغزوة عدة آيات من سورة الأنفال منها قوله تعالى {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين}[3].

وفي سبب نزولها: روى الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: نظر نبي الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا فاستقبل القبلة ثم مد يديه وجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم أن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر فأخذ منه رداءه

---

(1) وقد تمثل بابيانات عمه ابى طالب: كذبتم وبيث الله تخلى محمداً : : ولما نطاعن دونه ونناضل
ولنسلمن حتى نصرع حوله : : ونذل عن ابنائنا والحلائل
وقال لوكان حيا لعلم انا احق منه بما قال.

(2) كلمة تقال في موقع الاعجاب.

(3) الانفال الآية 9

وألقاه على منكبيه، ثم إلتزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله: كفاك منا شدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فانزل الله الآية[1].

كما نزل يوم بدر قوله تعالى {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى}[2] بسبب قبضة الحصباء التي رماها الرسول في وجه قريش وذلك علي المشهور[3].

وكذلك قوله تعالى {وإن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح} إلى قوله تعالى {وإن الله مع المؤمنين}[4] فقد روى الحاكم عن عبد الله بن ثعلبة قال: كان المستفتح أبا جهل فإنه قال حين التقى القوم: اللهم اينا كان اقطع للرحم واتي بما لا يعرف فاحنه الغداة وكان ذلك استفتاحا فانزل الله الآية[5].

غنائم بدر:

روى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ فمن قتل قتيلا فله كذا وكذا ومن اسر أسيراً فله كذا وكذا فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان أشركونا معكم فانا كنا لكم ردءًا، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا، فاختصوا إلى النبي ﷺ فنزلت الآية {يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول}[6].

وروى أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان بدر قتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، فأتيت به النبي ﷺ فقال اذهب فاطرحه في القبض فرجعت ومعي مالا لا يعلمه إلا الله من قتل أخي، واخذ سلبي، فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال فقال النبي ﷺ اذهب فخذ سيفك.

وروى أبو داود والترمذي والنسائي عن سعد قال: لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت

(1) أسباب النزول ص211 .
(2) الانفال الآية17.
(3) أسباب النزول ص214 .
(4) الانفال الآية 19.
(5) أسباب النزول ص215
(6) الانفال من الآية 1.

يا رسول الله: إن الله قد شفا صدري من المشركين، هب لي هذا السيف، فقال هذا ليس لي ولا لك. فقلت؛ عسى أن يعطي هذا من لا يبلى بلائي فجاءني الرسول ﷺ فقال: انك سألتني وليس لي، وانه قد صار لي وهو لك فنزلت يسألونك عن الأنفال الآية.

واخرج ابن جرير عن مجاهد إنهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الاخماس فنزلت يسألونك عن الأنفال الآية[1].

أسرى بدر:

وبعد الرجوع إلى المدينة بالأسرى: استشار الرسول ﷺ أصحابه فيما يفعل بالأسرى فقال عمر يا رسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك، فأرى أن تمكنني من فلان – قريب له – فاضرب عنقه، وتمكن حمزه من أخيه العباس، وعليا من أخيه عقيل، وهكذا حتى يعلم الناس انه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم، وأئمتهم وقادتهم. ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحه. وقال له أبو بكر يا رسول الله هؤلاء اهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن الله يهديهم بك فيكونوا لك عضدا فقال عليه السلام: إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن، وان الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون اشد من الحجارة، وان مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال {فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم}[2] وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال {رب لا تذر علي الأرض من الكافرين ديارا}[3].

ورأى ﷺ رأى أبي بكر بعد أن مدح الرأيين. وقال لو اجتمعتما ما عصيتكما[4]. وقال لأصحابه: انتم اليوم عالة لا يفلتن اليوم أحد من أسراكم إلا بفداء.

واستمرت قريش تنوح على القتلى شهراً حتى نهى بعضهم بعضا خشية أن يشمت بهم

(1) أسباب النزول ص209 .

(2) ابراهيم الآية 36.

(3) نوح الآية 26 .

(4) انظر التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب الآثار من رقم423/ 430ص413/ 418. الدار العربية للكتاب.

المسلمون، وسمعوا بالفداء فلم يسرعوا في المفاداة حتى لا يبالغ المسلمون في فداء الأسرى – إلا أن المطلب بن أبي وداعة السهمي وكان أبوه أسيرا خرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم، وعند ذلك تتابعت قريش في فداء أسراها.

وكان الفداء من أربعة آلاف إلى ألف درهم، ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة، أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم وكان ذلك فداءه[1] وكان من بين الأسرى عمرو بن أبي سفيان وأبى أبو سفيان فداءه وقال لا يجمع محمد بين ابني وماله فليبق عندهم ما بدالهم، ووجد سعد بن النعمان الأنصاري معتمراً بمكة فعدا عليه وحبسه بابن عمرو، فمضى قوم سعد إلى رسول الله ﷺ فأعطاهم عمرا ففكوا به سعدا ومن الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ، وكان اثنى على الرسول وأبى أن يطلق زينب كما فعل ابنا أبي لهب بابنتي الرسول رقية وأم كلثوم. وقد أرسلت زينب قلادة حلتها بها أمها خديجة رضي الله عنها لتكون القلادة فداء زوجها فرق الرسول ﷺ وتذكر خديجة فقال لأصحابه: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا لها قلادتها فافعلوا فرضى الأصحاب بذلك وأطلقه بشرط أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة فلما وصل إلى مكة أمرها باللحاق بأبيها فأرسل لها من يأتي بها، ولما اسلم أبو العاص قبيل الفتح رد عليه امرأته.

وكان سهيل بن عمرو أحد الأسرى وكثيرا ما آذى المسلمين بلسانه وكان خطيبا مفوها فقال عمر للرسول ﷺ دعني انزع ثنيتي سهيل يدلع[2] لسانه فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا فقال ﷺ: : لا امثل فيمثل الله بي وان كنت نبيا وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه. وفداه مكرز بن حفص، وصدق رسول الله ﷺ فيما قال فقد ناصر الإسلام في خطب كثيرة جمع بها المسلمين في الساعات الحرجة.

وفدا خالد وهشام ابنا الوليد بن المغيرة أخاهما الوليد ولما رجعا إلى مكة اسلم وقال خفت أن أعلن إسلامي عندهم فيعدونه خوفا ثم التحق بالرسول ﷺ في عمرة القضاء.

ومن الأسرى وهب بن عمير الجحمي وكان أبوه كثير الإيذاء للمسلمين والرسول وقد

(1) نور اليقين ص85.

(2) يدلع: يخرج .

جلس بمكة مع صفوان بن أمية يتحدثان في مصاب قريش فقال عمير لولا دين علي وأسرة أخشى عليهم الفقر لقتلت محمداً فقال له صفوان دينك علي وكذلك أسرتك فاخذ سيفه وذهب ليقتل النبي ﷺ.

ولما رآه عمر متوشحا سيفه قال ما يريد هذا إلا شراً فامسكه فقال ﷺ أطلقه يا عمر فدخل وقال انعموا صباحا فقال الرسول ﷺ: قد أبدلنا الله تحية خيرا من تحيتك وهي السلام. ثم قال: ما جاء بك يا عمر؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه – يعني ابنه– قال: فما بال السيف؟ قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا. فقال ﷺ أصدقني ما الذي جئت به؟ قال ما جئت إلا لذلك فقال ﷺ: كلا بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر وقلتما كيت وكيت فاسلم عمير وقال: كنا نكذبك ما تأتي به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان. فقال ﷺ فقهوا أخاكم في دينه، وأقرؤه القرآن وأطلقوا أسيره.

ومن الأسرى أبو عزيز بن عمير اخو مصعب وأوصى أخوه بأن يشدد عليه حتى يفدى وفدى بأربعة آلاف درهم لأن أمه ميسورة الحال. ومنهم العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وطلب الرسول ﷺ من عمه العباس دفع الفداء عنه وعن ابن أخيه فقال ما خرجت إلا مكرها فقال له الرسول ﷺ: لقد كنت في الظاهر علينا فقال للرسول لقد تركتني فقير قريش ما بقيت فقال له: كيف وقد تركت لام الفضل أموالا وقلت لها: إن مت فقد تركتك غنية. فقال العباس: والله ما اطلع على ذلك أحد.

ومن الأسرى أبو عزة الجمحي الشاعر وكان شديد الإيذاء للرسول ﷺ فلما اسر قال: يا محمد إني فقير وذو عيال وذو حاجة قد عرفتها فامنن فمن عليه فضلا منه ﷺ.

ما نزل من القرآن في الأسرى:

قال الله تعالى: {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم }[1].

(1) الانفال الآية 67 .

وفي سبب نزولها: روى أحمد وغيره عن انس قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسرى يوم بدر فقال: إن الله قد أمكنكم منهم فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله: اضرب أعناقهم فاعرض عنه، فقام أبو بكر فقال: نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فانزل الله {لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم}[1].

وروى أحمد والترمذي والحاكم وابن مسعود قال: لما كان يوم بدر وجيء بالاسارى قال رسول الله ﷺ ما تقولون في هؤلاء الاسارى الحديث وفيه نزل القرآن بقول عمر {ما كان لنبئ أن يكون له أسرى} إلى آخر الآيات.

واخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لم تحل الغنائم لم تحل لأحد سود الرؤوس من قبلكم، كانت تنزل نار من السماء فتأكلها، فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم فانزل الله {لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم}[2] واستشهد ببدر أربعة عشر رجلا وقتل من قريش سبعون واسر سبعون.

العبر في هذه الغزوة

1- هي أول غزوة حدث فيها قتال كبير ونصر الله فيها عباده وأنجز وعده وعلت بها راية الإسلام.

2- الله مع الحق، ولا تعنى الكثرة شيئا إذا كانت على الباطل، فلا مجال للمقارنة بين المسلمين والمشركين من حيث العدد والعدة، ولكن من كان الله معه فلا غالب له، ولا غالب إلا الله.

3- حسن التدبير والاستطلاع وبث العيون، واحتساب قدرة العدو فمن استهان بعدوه فإنما يستهين بنفسه

4- جواز كتمان الحقيقة لمصلحة المسلمين كما فعل ﷺ مع الشيخ الذي سأله عن محمد وعن

(1) الانفال الآية 68 .

(2) أسباب النزول ص226 والتفسير الماثور عن عمر الاثر رقم423و425 ص413، 414.

المشركين وقال له الرسول نحن من ماء وهى تورية وكل الناس من ماء مهين وقد فهم الشيخ إنهم ربما كانوا من ماء العراق.

5- الاعتماد على الله والتوجه إليه بالدعاء بالنصر.

6- على القائد ألا تأخذه العاطفة وقد ندب الرسول ﷺ أبناء عمه وعمه وهم عبيده وحمزه وعلي لمبارزة فرسان قريش.

7- النزول عند الرأي المناسب فقد غير منزله أخذا بنصيحة الحباب بن المنذر.

8- الرغبة في الشهادة دليل على صدق الإيمان وعمق العقيدة وهذا ما اتصف به جميع صحابة الرسول ﷺ.

9- تحريم المثله حيث إن رسول الله ﷺ منع عمر بن الخطاب من خلع ثنيتي سهيل بن عمرو لتحريم التمثيل بالإنسان.

10- ما رمى بسهم ووجد حيا فلا يؤكل إلا إذا ذكى وذلك ما فعله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عندما رمى ظبيا في تربان وهم في الطريق وأصابه السهم ولما وجد به رمقا ومازال حيا ذكاه بحضرة الرسول ﷺ وقسم على الصحابة[1].

11- الاستشارة فكان ﷺ لا يقطع برأي حتى يستشير.

12- حسن معاملة الأسرى فقد أوصى الرسول صحابته بهم، وكانوا يؤثرونهم على أنفسهم.

13- الإسلام دين العلم والمعرفة فكان تعليم الغلمان القراءة والكتابة هو الفداء لمن لا مال له ولديه القدرة على التعليم.

14- عدل رسول الله ﷺ فقد اخذ الفدية من اقرب الناس إليه عمه العباس وابن عمه عقيل بن أبي طالب وهو الذي يقول لعقيل كلما لقيه احبك حبين حبا لقرابتك منى وحبا لحب عمى أبي طالب فكان أحب أولاده إليه[2]. ولكن هذا الحب والقرابة لم يمنعاه من العدل والمساواة.

---

(1) المغازى ج1، ص27

(2) انظر در السحابة في مناقب القرابة والصحابة للشوكانى.

15- صدق الأنصار ما عاهدوا الله عليه في بيعة العقبة بل إنهم ذهبوا إلى ابعد من ذلك حيث نصروه خارج المدينة وليس بداخلها ولهذا استشارهم ﷺ.

16- قبوله حكم صحابته عليه فعندما كان يسوئ الصفوف وجد سواد بن غزية مستنصلا من الصف فطعن بطنه بالقدح وقال استويا سواد فقال أوجعتني وقد بعتك الله بالحق والعدل فاقدنئ فكشف الرسول ﷺ عن بطنه وقال استقد فقبلها سواد فقال له ﷺ ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول الله حضر ما ترئ فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدي جلدك فدعا له الرسول بخير[1].

17- قبوله عمير بن الوقاص بعد أن رده ورد غيره لصغر سنهم وكانت سنه آنذاك ستة عشر عاماً وهذا دليل على أن هذه السن بداية سن التكليف، وقد اخذ الكثيرون من الفقهاء بهذا.

18- عمير بن وهب من اشد الناس إيذاء للرسول ﷺ يتآمر مع صفوان بن أمية سرا على قتل محمد ويتكفل له صفوان بسداد دينه وكفالة عياله، ويتقلد سيفه ليقتل به عدوا له ولصفوان وللمشركين وما أن يجلس بين يدي الرسول ﷺ ويخبره الرسول بما بيتوا في السر حتئ يسلم- وكان صفوان يقول حين خرج عمير إلى المدينة لجلسائه من المشركين: ابشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، فإذا بعمير يرجع إلى مكة مسلما وداعية وهو يقول سأوذي المشركين كما كنت أوذي الرسول وصحبه واسلم على يديه كثيرون إنها معجزات النبوة وهذه تذكرنا بما كان من سراقة أثناء رحلة الهجرة وعمير بن وهب هو الذي كان عينا على المسلمين في بدر ونقل عددهم للمشركين.

19- نزل في هذه الغزوة حكم الغنائم، ووجوب ثبات المسلمين أمام الكفار الواحد أمام العشرة ثم خفف الله عليهم فحرم فرار المسلم من اثنين، وتحريم التولي يوم الزحف، إلا إذا كان تحرفا لقتال أو تحيزا إلى فئة، وحكم الأسرئ، والأمر بنبذ العهد عند الخيانة، والأمر بإعداد العدة وغير ذلك كثير من الأحكام الشرعية.

20- واخرج أبو داوود والطبراني في الأوسط بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله

(1) سيرة ابن هشام ج، ص416.

ﷺ قال: اطلع الله على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وكان عمر بن الخطاب عندما يطلب منه قادة الفتوح مددا يقول: أتطلبون مددا وفيكم البدريون؟ إكراما لهم وإعلاء لشانهم.

21- الخيرة فيما يختاره الله، فقد كان المسلمون يودون أن تكون لهم العير وهو مغنم دنيوي، فاختار لهم الله ما هو خير من ذلك: النصر والشهادة، وعلو الشأن، وقد نالوا الغنائم كذلك فنالوا الخيرين: وكان خير الآخرة هو الأصل، وخير الدنيا بالتبع.

غزوة قينقاع (نصف شوال السنة الثانية)

وقعت هذه الغزوة في النصف من شوال على راس عشرين شهرا من دخوله المدينة.

وعندما قدم الرسول ﷺ منتصرا في بدر اغتاض اليهود وروى عن ابن كعب القرضى قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وادعته يهود كلها. وكتب بينه وبينهم كتابا.

وألحق الرسول ﷺ كل قوم بحلفائهم – وقد سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب واثبت بنصه كما تضمنته المصادر – وجعل بينه وبينهم أمانا وشرط عليهم شروطا فكان فيما شرط ألا يظاهروا عليه عدوا، فلما أصاب الرسول ﷺ أصحاب بدر وقدم المدينة بغت يهود وقطعت ما بينها وبين الرسول ﷺ من العهد. فأرسل الرسول ﷺ إليهم وجمعهم ثم قال: يا معشر يهود اسلموا فوالله إنكم لتعلمون إني رسول الله قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش فقالوا: يا محمد: لا يغرنك من لاقيت انك قهرت قوما أغمارا[1] وأنا والله أصحاب الحرب، ولان قتلتنا لتعلمن انك لم تقاتل مثلنا فبينما هم على ما هم عليه من إظهار العداوة ونبذ العهد جاءت امرأة نزيعة[2] من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بنى قينقاع فجلست عند صانع حلى لها، فجاء رجل من يهود قينقاع فجلس وراءها وخل درعها إلى ظهرها وهى لا تشعر فلما قامت بدت عورتها فضحكوا منها فقام إليه رجل من المسلمين فتابعه فقتله فاجتمع اليهود وقتلوا الرجل المسلم ونبذوا العهد إلى الرسول ﷺ وتحصنوا في حصونهم، ونزل قوله

(1) اغمار: جمع غمر بضم الغين وهو الجاهل.

(2) النزيعة: المراة تتزوج في غير عشيرتها.

تعالى {قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم ويئس المهاد}[1] فسار إليهم الرسول ﷺ وحاصرهم خمسة عشر يوما من السبت نصف شوال إلى هلال ذي القعدة، وكان حصارا قويا قذف الله به الرعب في قلوبهم وقالوا: أو ننزل وننطلق؟ فقال لهم الرسول ﷺ إلاّ على حكمي. فنزلوا علي حكمه ﷺ وربطوا. وكان يحرسهم وهم مكتفون المنذر بن قدامه السلمي وحاول عبد الله بن أبي حل وثاقهم فقال المنذر أتحلون قوما ربطهم رسول الله ﷺ؟ والله لا يحلهم رجل إلا ضربت عنقه. وكان عبد الله بن أبي حليفا لهم. أما عبادة بن الصامت فقد تبرأ من حلفهم وانزل الله سبحانه وتعالى قوله {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين}[2].

وفي سبب نزولها: اخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقى عن عبادة بن الصامت قال لما حاربت بنو قينقاع تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام دونهم ومشي عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وكان أحد بنى عوف من الخزرج وله من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي فخالفهم إلى رسول الله ﷺ وتبرا من حلف الكفار وولايتهم ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآية[3].

وقد قال عبد الله بن أبي للرسول ﷺ وهم مكتوفون:

أحسن في موالى أربعمائة دارع وثلاثمائة حاسر منعوني يوم الحدائق ويوم بعاث من الأحمر والأسود، تريد أن تحصدهم في غداة واحدة؟ يا محمد إني امرؤا خشي الدوائر وكأن الآية التي بعدها ترد عليه قوله. والله اعلم {فتري الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما اسروا في أنفسهم نادمين}[4] وطلب اليهود مهلة لأن لهم دينا على الناس فقال لهم ﷺ تعجلوا وضعوا وأعطاهم مهلة ثلاثة أيام لا أزيدكم عليها وحاولوا أن يزيدهم عبادة بن الصامت مدة أخرى فقال: ولا ساعة من نهار، ولو كنت أنا لما أمهلتكم ولا أزيدكم على مهلة

(1) آل عمران الآية 12 وأسباب النزول ص94 وكذلك نزلت الآية التي بعدها.

(2) المائدة الآية 51 .

(3) أسباب النزول ص181.

(4) المائدة الآية52.

رسول الله ﷺ وكان هو المسؤول عند إجلائهم وجلوا إلى اذراعات بالشام وهلكوا جميعاً هناك بعد خمسة أعوام كما تقول بعض المصادر.

وخمس الرسول ﷺ ما غنموا منهم ولم يخرجوا إلا بذريتهم ونسائهم.

من عبر هذه الغزوة:

1- غدر اليهود طبع متأصل في نفوسهم جبلوا عليه وإلا فما ضرهم انتصار الرسول ﷺ في بدر، وقريش عرب وليسوا يهودا وليسوا من حلفاء اليهود في المدينة.

2- انتصار المسلمين لامرأة خدش حياؤها، وكم خدش اليهود حياء المسلمات اليوم ولا من مجيب للصرخات والاستغاثة إلا نفر قليل يدافعون عن الإسلام في صمت ومعينوهم قليلون.

3- لا يوالي المسلم الكافر. والنهي عن ذلك صريح.

4- مهما يستر المنافقون نفاقهم فالله يكشفهم.

5- الرسول ﷺ لا ينقض عهود ه ومواثيقه. ومع ذلك فهو لا يرضى بالذل والضيم، وان يهان شرف المسلمين وحرماتهم.

6- انكشاف جبن اليهود وقد ادعوا أن قريشاً غمر وأنهم أهل حرب، فما أغنت عنهم حصونهم التي لاذوا بها، وضرب الله عليهم الذلة والمسكنة.

غزوة السويق ذو الحجة سنة 2

وقعت هذه الغزوة في ذي الحجة على رأس اثنين وثلاثين شهرا يوم الأحد لخمس من ذي الحجة.

وعندما رجع المشركون إلى مكة مهزومين حرم أبو سفيان الدهن والماء فلا يمس جلده حتى يثأر من محمد وأصحابه، فخرج في مائتي راكب في رواية وفي رواية في أربعين[1] حتى جاءوا

(1) المغازى ج1، ص181.

يهود بني النضير ليلا وأرادوا أن يجدوا عند حي بنى اخطب معلومات عن محمد وأصحابه فلم يفتح لهم بابه وطرقوا باب سلام بن مشكم ففتح لهم وضيفهم، واخبرهم عن محمد وأصحابه.

ومر أبو سفيان بواد بالمدينة اسمه العريض فوجد رجلا مع عامل له وكلاهما من الأنصار فقتلهما، وحرق بيتين ومزروعات بالوادي ورأى أنه بذلك قد بر بيمينه فرجع هاربا وخاف أن يطلبه الرسول ﷺ. وجعلوا يخففون من أحمالهم فيرمونها في الطريق، وكانت السويق عامة ازو ادهم فسميت غزوة السويق، وهى ليس إلا تحلة القسم حتى لا يقال أن أبا سفيان حنت في يمينه إذا مس طيبا أو اغتسل.

وخرج الرسول ﷺ في عدد من أصحابه في طلب أبي سفيان ومن معه حتى بلغ قرقرة الكدر فلم يجدوا أحدا وقال المسلمون للرسول ﷺ وهم راجعون، أتطمع لنا أن تكون غزوة؟ قال: نعم[1].

غزوة ذي أمر[2]

لما رجع ﷺ من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريبا من ذلك ثم غزا نجدا يريد غطفان وهى غزوة دي أمر واستعمل على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وأقام بنجد شهر صفر كله أو قريبا من ذلك ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا[3] هذا ما يقوله ابن هشام أما الواقدى فيقول: بلغ رسول الله ﷺ أن جمعا من ثعلبة ومحارب بذى أمر تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ تحت قيادة دعثور بن الحارث بن محارب. فخرج الرسول ﷺ في أربعمائة وخمسين رجلا ومعهم أفراس. وأصابوا في الطريق رجلا منهم يريد يثرب وسألوه هل رأى جمعا في الطريق فقال لم أر أحداًس إلا انه قد بلغني أن دعثور بن الحارث في أناس عزل من قومه، وادخلوه على الرسول ﷺ فاسلم وقال: أنا أدلك عليهم، وهم إذا سمعوا بك هربوا إلى الجبال فلا يلاقونك. وعسكر النبي ﷺ وهرب القوم إلى رؤوس

(1) ابن هشام ج2ص32.

(2) ذو أمر: واد بطريق المدينة على ثلاث مراحل.

(3) ابن هشام ج2ص33.

الجبال، وكان في أحد الأيام أن نام الرسول ﷺ تحت شجرة فرآه الأعراب وهو مضطجع فقالوا لدعثور قد أمكنك محمد من نفسه فاخذ سيفه ليقتله منتهزا فرصة بعد أصحابه عنه فليس له من يغيثه، فلما قام على رأس النبي شاهراً سيفه قال: يا محمد من يمنعك مني اليوم؟ فقال الرسول ﷺ: الله، ودفع جبريل عليه السلام في صدره ووقع السيف من يده فأخذه الرسول ورفعه فقال: من يمنعك مني اليوم؟ قال: لا أحد ثم قال اشهد أن لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعا أبداً فأعطاه الرسول سيفه فقال الرجل: أما والله لأنت خير منى فقال ﷺ أنا أحق بذلك منك فأتي قومه فقالوا أين ما كنت تقول والسيف في يدك؟ فقال: والله لقد نظرت إلى رجل دفع في صدري فوقعت لظهري فعرفت انه ملك وأسلمت وجعل يدعو قومه إلى الإسلام ونزل قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا أيكم أيديهم فكف أيديهم عنكم}[1].

وهكذا يحمي الله رسوله ويعصمه من الناس في الوقت الذي يعز فيه النصير في الظاهر والله خير حافظ.

غزوة بني سليم ببحران جمادى الأولى سنة ثلاث:

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعا كثيراً ببحران قد تجمع فتهيأ الرسول ﷺ للخروج في ثلاثمائة رجل ولم يظهر الوجهة التي يريدها للتمويه على العدو وأسرعوا السير حتى إذا كانوا دون بحران بليلة لقي رجلاً من بني سليم فسأله عن القوم وجمعهم فاخبره إنهم قد افترقوا بالأمس ورجعوا إلى مائهم، فحبسه الرسول ﷺ مخافة أن يكون قد خذله ولما وصل بحران لم يجد أحدا وأطلق سراح الرجل وبقي بها عشرة أيام ولم يلق كيداً واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم[2].

ويؤخذ من هذه الغزوة:

1- وجوب الاحتياط والترصد للعدو.

2- صحة امامة الأعمى وهذا ما أخذ به الفقهاء.

---

(1) المائدة الآية 11. وانظر أسباب النزول السيوطي ص175 والمغازيج، ص196.

(2) المغازي ج2ص197وابن هشام ج2ص33

سرية زيد بن حارثة إلى القردة[1]:

خافت قريش على تجارتها أن تسلك بها الطريق المعهودة إلى الشام فغيرت طريقها ناحية العراق، وكان أن خرج أبو سفيان ومن معه في تجارة كبيرة فسلكوا طريق العراق، واستأجروا دليلا ذا خبرة لذلك. وأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثه، فلقيهم علي ذلك الماء وأصاب العير وما عليها وجاء إلى المدينة، وأعجزه الرجال. وكانت قريش تتألم اشد الألم لأن الطريق غير مأمون أمام تجارتهم وقد قال صفوان بن أمية: إن محمدا وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه، لا يريحون الساحل وأهل الساحل قد وادعهم، ودخل عامتهم معه فما ندرى أين نسلك وإذا بقينا هكذا أكلنا رؤوس أموالنا. وخمس الرسول ﷺ العير وكان خمسها عشريين ألف درهم وقسم الباقي علي السرية وكان في الأسرى فرات بن حيان فلما اسلم أطلق سراحه[2].

غزوة أحد (15 **شوال سنة ثلاث**):

أحد جبل مشهور بالمدينة في شمالها الغربي بينه وبين المدينة ثلاثة أميال خمسة كيلو مترات تقريباً سمي بذلك لتوحده وانفراده عن غيره من الجبال وهو الموضع الذي دفن فيه هارون اخو موسى عليه السلام[3].

أراد المشركون أن يثاروا لقتلاهم في بدر، وان ينقذوا سمعتهم أمام الناس فاتفقوا على أن يكون ربح التجارة التي قدمت من الشام مع أبي سفيان قبل يوم بدر كلها للنفقة على الحرب وكانت لا تزال تلك العير موقوفة بدار الندوة ولم تعط لأربابها، وكان المال خمسين ألف دينار.

وكان عدد الجيش ثلاثة ألاف فيهم سبعمائة دارع ومائتا فرس فكان جيشاً كبيراً يقوده أبو سفيان. وخرجت مع الجيش سبع عشرة امرأة لإثارة الحماس في المقاتلين، وتذكيرهم بالثأر. وانظم إليهم في الطريق بعض حلفائهم من بني المصطلق وغيرهم.

---

(1) القردة: من ارض نجد ناحية ذات عرق.

(2) ابن هشام ج2ص36والمغازى ج1ص198.

(3) محمد رسول الله ص237.

وخرجوا من مكة يوم 5 من شوال وكتب العباس للنبي ﷺ يخبره بخروج قريش ووصل الكتاب إلى النبي ﷺ وهو بقباء فدفعه إلى أبي بن كعب فقراه عليه، ثم اخبر سعد بن الربيع واستكتمهما وسمعت زوج سعد حديث الرسول ولكنها سألت زوجها فلم يخبرها، ولما أخبرته بما سمعت صحبها إلى الرسول ﷺ مخافة أن يتهم بأنه أفشى السر فقال له ﷺ: خل عنها. «أي لم يؤاخذها».

وصل جيش قريش بطن الوادي من قبل أحد يوم الثاني عشر من شوال وكان وصولهم يوم الأربعاء فأقاموا الأربعاء والخميس والجمعة. وتشير بعض المصادر إلى أن وصول المسلمين إلى أحد يوم السبت وتشاور المسلمون في الخروج من المدينة، وكان النبي ﷺ يرى عدم الخروج من المدينة ووافقه عبد الله بن أبي سلول وبعض الصحابة إلا أن أكثرهم ألح علي الخروج فخرج فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت الخامس من عشر من شوال.

وقد رأى النبي ﷺ ليلة الجمعة قبل خروجه رؤيا فلما أصبح قال لأصحابه: إني قد رأيت خيراً: رأيت بقراً تذبح ورأيت ذباب سيفي - أي طرفة ثلما ورأيت إني أدخلت يدي في درع حصينة وكأني مردف كبشاً. فأما البقر فناس من أصحابي يقتلون، وأما الدم الذي رأيت في سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل، وأولت الدرع الحصينة: المدينة، وأولت الكبش باني اقتل صاحب الكتيبة. وصدق الله رسوله فكان الرجل الذي من أهل بيته سيد الشهداء حمزه رضي الله عنه، وكان الكبش صاحب الكتيبة طلحة بن عثمان العبدري الذي قتله علي كرم الله وجهه.

وقد رأى بعض الصحابة إنهم إنما الحوا على رسول الله ﷺ في الخروج ورأوا أن يتركوا الأمر له، وعرضوا عليه ذلك فقال: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته - أي لباس الحرب - أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه.

وكان في المسلمين مائة دارع، وقد رد صغار السن إلا رافع بن خديج لما قيل له انه رام فخرج وأصيب بسهم في ترقوته فنزع السهم وبقي النصل إلى أن مات.

ورأى جماعة من اليهود مع عبد الله بن أبي فسأله هل اسلموا؟ فقال: لا فقال ﷺ: مروهم فليرجعوا فانا لا نستعين بالمشركين على المشركين. وكان عدد المسلمين ألفا فلما رجع عبد الله بن أبي ومن معه من اليهود والمنافقين صار عدد المسلمين سبعمائة، ولم يكن مع المسلمين إلا فرسان فرس للرسول ﷺ وفرس لأبي بردة. ولما أنخذل ابن أبي ومن معه سقط

في أيدي طائفتين من المسلمين وهمتا أن تفشلا وهما بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس.

وعقد الرسول ﷺ الألوية وكانت ثلاثة: لواء للاوس وجعله بيد أسيد بن حضير، ولواء للخزرج وجعله بيد الحباب بن المنذر، ولواء للمهاجرين وجعله بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجعل الرسول ﷺ ظهره وعسكره إلى أحد، وصلى الصبح بأصحابه صفوفا ثم اصطفوا. وكان على ميمنة المشركين خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل وعلى المشاة صفوان بن أميه وقيل عمرو بن العاص. وقال الرسول ﷺ استقبل خالدا وكن بإزائه، وأمر جماعة أخرى بأن يكونوا بإزاء خيل المشركين وكان الرماة خمسين رجلا فأقامهم على جبل صغير مرتفع وقال لهم: احموا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقوم على النبل، إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم، وفي رواية قال لهم رسول الله ﷺ: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وان رأيتمونا هزمنا القوم أو ظاهرناهم وهم قتلي فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» ثم عرض الرسول ﷺ سيفاً وقال من يأخذ هذا السيف بحقه؟

فقام رجال وبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول: أنا يا رسول الله منهم أبو بكر الصديق وعمر وعلي والزبير، فامسكه عنهم حتى قام إليه أبود جانة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه يا رسول الله. قال: لعلك إن أعطيتك تقاتل في الكيول (مؤخر الصفوف) قال: لا يا رسول الله، فأعطاه إياه وكان رجلا شجاعا يختال عند الحرب، فلما رآه ﷺ يتبختر قال: إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في مثل هذا الموطن فحمل أبو دجانة لا يلقي أحدا من المشركين إلا قتله، وكان إذا كل السيف شحذه بالحجارة ثم يضرب به العدو. ولما اصطف القوم نادى أبو سفيان، يا معشر الأوس والخزرج خلوا بيننا وبين بني عمنا فشتموه أقبح شتم.

وكان الرسول ﷺ قد أرسل الحباب بن المنذر ليحرز عدد العدو وقال له: لا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى قلة فرجع إليه فاخبره سراً فقال رأيت يا رسول الله عددا أحرزتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا والخيل مائتي فرس والدروع الظاهرة حزرتها سبعمائة وقال له الرسول ﷺ وهل رأيت ظعناً أي نساء؟قال رأيت النساء معهن الدفاف

والأكبار (الطبول). فقال رسول الله ﷺ: أردن أن يحرضن القوم ويذكرن قتلي بدر هكذا جاءني خبرهم. لا تذكر من شأنهم حرفاً حسبنا الله ونعم الوكيل اللهم بك أجول وبك أصول[1].

بدء القتال

خرج طلحة بن أبي طلحة حامل لواء المشركين ويسميه المسلمون كبش الكتيبة، وكان يركب جملاً وطلب المبارزة فبرز إليه علي بن أبي طالب وفي رواية الزبير ابن العوام وكان حامل لواء المشركين شجاعاً إلا أن الله نصر جنده فقتل طلحة وكبر رسول الله ﷺ وكبر معه المسلمون وكانت إحدى إشارات الرؤيا الصادقة[2].

المعركة حول لواء المشركين

كان مركز المعركة لواء المشركين؛ لأن سقوط اللواء يصيب المقاتلين بالضعف ويذهب ريحهم فقد حمله بعد مقتل طلحة أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة فتقدم إليه حمزه بن عبد المطلب فقتله ثم حمله أبو سعد بن أبي طلحة فقتله سعد بن أبي وقاص حيث رماه بسهم فقتله ثم حمله مسافع بن طلحة فرماه عاصم بن ثابت بسهم فقتله ثم حمله بعده أخوه تلاب بن أبي طلحة فانقض عليه الزبير بن العوام حتى قتله، ثم حمله الجلاس بن أبي طلحة فقتله طلحة بن عبيد الله[3]، ثم حمله ارطأة بن شرحبيل فقتله علي كرم الله وجهه وقيل حمزه، ثم حمله شريح بن قارظ فقتله قزمان الذي قاتل حمية وقد مر به قتادة بن النعمان فقال له هنيئا لك الشهادة فقال والله ما قاتلت عن دين ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا حتى تطأ سعفنا وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: من أهل النار ثم حمله صؤاب فقتله قزمان أيضاً ثم حمله أبو زيد بن عمرو بن عبد مناف العبدري فقتله قزمان كذلك ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدري فقتله قزمان. وكان شجاعاً شجاعة خارقة وفي بعض المصادر: صواب آخر من حمله وهكذا قتل كل من حمل اللواء حتى بقي ساقطاً.

---

(1) محمد رسول الله ص208.

(2) المغازي ج، ص226 والرحيق المختوم ص234.

(3) وقيل: عاصم بن ثابت.

وأجمعت المصادر انه ما ظفر الله نبيه قط ما ظفره وأصحابه يوم أحد إلى أن خالف الرماة أمر الرسول ﷺ. فقد ضرب المسلمون أمثلة نادرة في البطولة وكان شعارهم يوم أحد أمت أمت.

أبو دجانة يعطي حق سيف الرسول ﷺ:

عصب أبو دجانة رأسه بعصابة حمراء وقد رفع السيف الذي أعطاه إياه الرسول وأخذ يقول:

أنا الذي عاهدنـــي خليلي : : ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر في الكيول[1] : : أضرب بسيف الله والرسول

فاخترق صفوف المشركين واندفع فيها اندفاع السيل أو الريح فكان لا يلقي أحداً إلا قتله، ووجد هند بنت عتبة وهي تحرض المشركين على القتال فرفع السيف ليقتلها ثم قال سيف رسول الله أكرم من أن اضرب به امرأة وكان في المشركين رجل شجاع لا يدع جريحاً من المسلمين إلا ذفف عليه[2] فضربه أبو دجانه وقتله، وكان إذا أكل السيف شحذة بالحجارة وعاد يضرب به حتى أعطاه حقه كما عاهد الرسول ﷺ.

ويقول الزبير بن العوام: وجدت في نفسي حين سالت إعطائي السيف وأنا ابن عمته صفية فاختار علي أبا دجانة فلما رأيت شجاعته ويلاءه في المشركين ارتاحت نفسي[3].

وكان حمزه من أشجع المقاتلين فقد قتل رضي الله عنه عدداً من المشركين منهم من كان يحمل اللواء، ويعجز القلم عن وصف البطولات النادرة وقد أثر سقوط اللواء في نفوس المشركين وقد رأي عشرة ممن حملوه قد قتلوا وماتزال في نفوسهم هزيمة بدر وثارات بدر، وصمم كل فريق علي انتزاع النصر، وتحمل كل التضحيات في سبيله، إلا أن كفة المسلمين هي الراجحة فالقتلى في صفوف المشركين وفي كبار فرسانهم أكثر ولواؤهم في التراب، وكان للرماة فضل كبير في حماية ظهور المسلمين.

---

(1) الكيول مؤخرة الصفوف.

(2) ذفف علية وجدة جريحا فضربه وعجل بقتله.

(3) المراجع السابقة.

ورغم عدم تكافؤ العدد إلا أن النصر بات حليف المسلمين، وانهزم المشركون، وصاروا يلوذون بالفرار، والمسلمون يطاردونهم.

الرماة يخالفون أمر الرسول ﷺ:

لما رأى الرماة الذين كلفهم الرسول ﷺ بحراسة ظهور المسلمين أن المسلمين قد انتصروا وان المشركين ولوا هاربين تخلوا عن أمكنتهم إلا عبد الله بن جبير ونفر معه وانكشفت ظهور المسلمين للعدو وطوقهم المشركون من الخلف بقيادة خالد بن الوليد وكان الرسول ﷺ قي مؤخرة الصفوف يرى المسلمين وهم يطاردون المشركين فباغتته خيول المشركين وطوقته مع تسعة من أصحابه كانوا حوله، ونادى الرسول ﷺ جموع المسلمين: يا عباد الله. وهو يعلم أن المشركين يسمعون صوته ويرصدونه فهم اقرب إليه حيث إن المسلمين قد تتبعوا المنهزمين من المشركين. وتسابق المسلمون في الرجوع إليه إلا إنهم ارتبكوا واختلطوا مع جيش المشركين في غير نظام ومنهم من قتل مسلماً خطا كما حدث عندما أبصر حذيفة بن اليمان أباه وقد قتله أحد المسلمين، وتاه بعض المسلمين في الشعاب والجبال وعمت الفوضى.

وقبل أن يصل إليه المسلمون ثبت الرسول ﷺ والنفر التسعة اللذين كانوا معه وقد هجم المشركون بكل ثقلهم يريدون قتله ﷺ. روى مسلم عن انس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار واثنين من قريش فلما رهقوه قال: من يردهم عنا وله الجنة؟ أو هو رفيقي في الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضاً فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة. فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه أي القرشيين ما أنصفنا أصحابنا[1].

وروى ابن إسحاق أن زياد بن السكن أو عمارة بن يزيد بن السكن قاتل دون رسول الله ﷺ في خمسة من الأنصار وقتلوا جميعاً وكان آخرهم عمارة بن يزيد الذي قاتل حتى أعيته الجراح ثم فاءت فئة من المسلمين فقال لهم الرسول ﷺ أدنوه مني فوسده قدمه فمات وخده علي رسول الله ﷺ[2].

(1) صحيح مسلم باب غزرة أحد ج2ص107 .

(2) سيرة ابن هشام ج2 ص58.

وفي فترة انكشاف الرسول ﷺ للعدو وإحاطتهم به قذفوه بالحجارة فكسرت رباعيته حتى وقع لشقه وشج وجهه الكريم وجرحت شفته وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص. فجعل الرسول ﷺ يمسح الدم عن وجهه وهو يقول «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم» ولما هدأ غضبه قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1] . وتابع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص فقتله.

وعن أبي سعيد الخدرى أن عتبة بن أبي وقاص رمي رسول الله ﷺ فكسر رباعيته اليمني السفلى وجرح شفته السفلى وأن عبد الله بن شهاب الزهرى شجه في جبهته وان ابن قمئه جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفرفي وجنته[2] ووقع في حفرة أعدها أبو عامر ليقع فيها المسلمون فاخذ علي بن أبي طالب بيده وطلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ومص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجه الرسول وازدرده فقال ﷺ من مس دمي دمه لم تصبه النار وقد استشهد ولما ضرب ابن قمئة الرسول قال: خذها وأنا ابن قمئة فقال له الرسول ﷺ اقمأك[3] الله واستجاب الله الدعوة فمات نطيحاً.

وقد تردى من جبل شاهق[4] فتقطع إربا إربا، وقال الواقدى اسمه ابن قميئه

الدفاع المستميت عن الرسول ﷺ:

بالإضافة إلى ما تقدم من ثبات العدد القليل من الأنصار وأنهم استشهدوا جميعاً كان لسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله موقف بطولي متميز فقد كان سعد من أفضل الرماة وقد نثل له الرسول ﷺ كنانته وهو يقول: ارم فداك أبي وأمي ويدل على مدى كفاءته انه ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد وأما طلحة فقد قاتل بعد مقتل الأنصار فسد مسدهم جميعاً وأصيب بخمسة وثلاثين أو تسعة وثلاثين جرحاً وقد شلت يده عندما وقى بها النبي ﷺ لما

(1) صحيح مسلم باب غزوة أحد ج2 ص108.

(2) ويروى أن اباعبيده نزع الحلقتين فسقطت ثنيتاه: ابن هشام ج2 ص60. والرحيق المختوم ص245.

(3) اقمأه الله: اذله.

(4) انظر: فتح البارى ج7 ص366 - 373.

أصابها بن الجراح[1]. وقال فيه ﷺ: من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي علي وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله[2]. وقد كان ينقي السهام ويقول نحري دون نحرك وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب فقد كانت تسقي الماء فلما رأت المشركين يحيطون بالرسول ﷺ أخذت السيف وصارت تضرب به وتذود عن الرسول فضربها ابن قمئة فجرحت وقد اعترضت هي ومصعب بن عمير وكونا درعاً يحمي الرسول واستشهد مصعب قتله ابن قمئة ضاناً أنه الرسول ووقف أبو دجانه يحمي الرسول والنبل يقع علي ظهره كالمطر، ورمى الرسول ﷺ عن قوسه حتى اندق طرفها، وأخذها قتاده ورمى بها وأصيب في عينه حتى سقطت على وجنته فأعادها الرسول ﷺ فكانت أحسن عينيه وأحدها ولم يصيبها الرمد طيلة حياته[3].وقاتل سهل بن حنيف قتال الأبطال، وقد بايع الرسول ﷺ علي الموت، وقاتل علي قتال الأبطال وهو يحمل اللواء بعد استشهاد مصعب بن عمير.

رجوع المسلمين والتحاقهم بالرسول ﷺ:

حمي الله رسوله ﷺ وهو مكشوف أمام المشركين فقد قال نافع بن جبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحدا فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطه يصرفه الله عنه وكان عبد الله بن شهاب الزهري يقول: دلوني على محمد لا نجوت إن نجا ورسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه، ولما عاتبه صفوان قال ما رايته: احلف بالله انه منا ممنوع، وخرجنا أربعة وتعاهدنا على قتله فلم نستطع.

وروى ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن أمية بن خلف كان يلقي رسول الله ﷺ في مكة فيقول: يا محمد عندي العوذ فرساً أعلفه كل يوم فرقا[4] من ذرة أقتلك عليه. فيقول ﷺ بل أنا قاتلك إن شاء الله فلما كان يوم أحد جاء إلى الرسول ﷺ وهو يقول: أي محمد: لا نجوت إن نجوت. فقال صحابته يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال ﷺ:

---

(1) البخارى ج1 ص527.

(2) سيرة ابن هشام ج2 ص60.

(3) المراجع السابقة.

(4) الفرق بفتح الراء وسكونها. مكيال يسع ستة عشرة مدا وقيل اثنى عشر.

دعوه فلما دنا تناول الرسول الحربة من الحارث بن الصمة فطعنه في عنقه طعنة تداداً منها عن فرسه مرارا، واحتقن الدم فقال له رفاقه ما بك من باس فقال انه قال لي أنا أقتلك وهو بمكة، فوالله لو بصق علي لقتلني وفي رواية أبي الأوفى رواية أبي الأسود عن عروة أنه كان يخور خوار الثور ويقول: والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز[1] لماتوا جميعاً. ومات بسرف[2] في طريق عودته إلى مكة واندفع عثمان بن المغيرة إلى الرسول ليقتله وقام الرسول لمواجهته إلا أن الفرس عثرت بعثمان في بعض الحفر فضربه الحارث بن الصمة فقتله وحاول عبد الله بن جابر أحد فرسان المشركين قتل الحارث فضربه أبو دجانه ضربة أطارت رأسه. وكان أول من عاد من المسلمين أبو بكر وأبو عبيدة وأول من عرف أن الرسول لم يقتل سعد بن مالك فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين ابشروا وتجمع المسلمون حول الرسول ﷺ.

إشاعة مقتل الرسول ﷺ:

عندما أشاع المشركون مقتل الرسول ﷺ وكان ابن قمئة قد قتل مصعب بن عمير وظن انه قتل الرسول حصلت ردت فعل قوية في صفوف المسلمين، وأصابت روحهم المعنوية، ومر انس بن النظر رضي الله عنه بعدد من المسلمين في حالة من الذهول وهم يقولون قتل الرسول ﷺ فقال لهم: ما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ثم قال اللهم إني اعتذر إليك مما صنع هؤلاء ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ فقال له إلى أين؟ فقال: إني لأجد ريح الجنة وقاتل حتى استشهد وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف حتى إن أخته لم تعرفه إلا بطرف بنانه. ومثل ذلك فعل ثابت بن الدحداح وقد حرض الأنصار علي القتال حتى استشهد علي يد خالد بن الوليد.

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار وهو يتخبط في دمه فقال له إن محمدا قد قتل فقال: إن كان قد قتل فقد بلغ قاتلوا عن دينكم.

---

(1) ذو المجاز: سوق بمكة. وانظر: ابن هشام ج2ص62. والرحيق المختوم ص250.

(2) سرف موضع على ستة اميال عشرة كم تقريبا من مكة.

وشاركت النسوة في ساحة القتال:

روي أن انس بن مالك قال: رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وأنهما لمشمرتان أرىٰ خدم سوقهما تنقلان القرب علي متونهما تفرغانه في أفواه القوم وكذلك فعلت أم أيمن[1].

المعذورون يصرون علي الجهاد:

كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج وكان بنوه الأربعة من الشجعان جاهدوا جميعاً ومنعوه من الخروج وقالوا له: أنت معذور.

فجاء إلىٰ الرسول ﷺ، ويقول: والله إني لأرجو الله أن أطأ بعرجتىٰ هذه في الجنة فقال له الرسول ﷺ أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك وقال لبنيه: ما عليكم ألا تمنعوه لعل أن يرزق الشهادة وخرج معهم فاستشهد[2] وبقي شيخان كبيران مع النساء بالمدينة لعجزهما وهما: حسيل بن جابر وهو: اليمان والد الحذيفة بن اليمان وثابت بن وقش فقال احدهما للآخر ماذا فو الله ما بقي لواحد منا من عمره إلا ضمئ[3] حمار إنما نحن هامة اليوم اوغداً فلنخرج علناً نرزق الشهادة فأخذا سيفيهما وخرجا والتحما بالمقاتلين. فأما اليمان فقد قتله المسلمون خطأ وأراد الرسول ﷺ أن يعطي ابنه حذيفة ديته فتصدق بها علي المسلمين وأما ثابت فقد قتله المشركون فنال كلاهما فضل الشهادة.

الرسول يصلى جالساً ويثنى على ربه:

صلىٰ رسول الله ﷺ الظهر جالساً لما به من جراح وصلىٰ خلفه المسلمون جلوساً وقد روىٰ الإمام أحمد إن رسول الله ﷺ قال: استووا حتىٰ اثني علي ربي ﷻ فاستووا صفوفاً خلفه فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما بعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

---

(1) انظر النجارىٰ ج1 ص403. وأم سليم هي ام انس بن مالك رضي الله عنهما.

(2) سيرة بن هشام ج 2 ج2 ص68.

(3) الضمىٰ ما بين شربتين وضمىٰ الحمار اقصر شئ لاته سريع العطش.

اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك العون يوم العلة، والمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب اله الحق[1].

حب ما بعده حب:

رجع الرسول ﷺ إلى المدينة بعد دفن الشهداء رضي الله عنهم وكان عدد القتلى سبعين أربعة وستون من الأنصار وستة من المهاجرين وقتل من المشركين ثلاث وعشرون.

وقد مر بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأبوها وأخوها واستشهدوا فلما نعوا إليها قالت فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى انظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل تريد صغيره[2] ولا تعليق على هذا إلا أن نقول: لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها. كما قال ﷺ. وجاءت إليه أم سعد بن معاذ، وهو آخذ بلجام فرس الرسول ﷺ فقال له أمي فوقف وقال: مرحباً بها وعزاها بابنها عمرو بن معاذ فقالت إما إذ رأيتك سالما فقد اشتويت المصيبة أي استصغرتها ثم دعا لمن قتل بأحد وقال: يا أم سعد أبشرى وبشرى أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً وقد شفعوا في أهلهم جميعا فقالت: رضينا يا رسول الله. ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: يا رسول الله: ادع لمن خلفوا منهم فقال: اللهم اذهب حزن قلوبهم واجبر مصيبتهم وأحسن الخلف علي من خلفوا[3] ولقيته حمنة بنت جحش فنعي إليها أخوها عبد الله فاسترجعت[4]. واستغفرت ثم نعا إليها خالها حمزه بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت

(1) مسند الامام احمد ج3 ص424.
(2) سيرة بن هشام ج2 ص75.
(3) السيرة الحلبية ج2ص47.
(4) استرجعت: قالت إنا لله وانا إليه راجعون.

ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولوت فقال ﷺ إن زوج المرأة منها بمكان[1] لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها ونياحها علي زوجها ونهي يومئذ عن النياحة.

صبر المؤمنين:

أقبلت صفية بنت عبد المطلب شقيقة حمزه رضي الله عنها فقال الرسول ﷺ لابنها الزبير بن العوام: القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها وقد مثل به المشركون اشد تمثيل فقال لها ابنها إن الرسول ﷺ يأمرك أن ترجعي قالت ولم؟ وقد بلغني إن قد مثل بأخي وذلك في الله. فما أرضانا بما كان من ذلك – أي نحن راضون غاية الرضا لاحتسبن ولأصبرن أن شاء الله فقال له ﷺ: خل سبيلها فاتته فنظرت إليه فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له وأمر الرسول ﷺ بدفنه رضي الله عنه[2].

ما نزل من القرآن في أحد:

أخرج ابن أبي حاتم وأبو علي عن المسور بن مخرمة قال: لعبد الرحمن بن عوف اخبرني عن قصتكم يوم أحد فقال: اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا {إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا} قال: {هم الذين طلبوا الأمان من المشركين} إلى قوله {ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد أتيتموه وانتم تنظرون}. قال: هو تمني المؤمنين لقاء العدو إلى قوله {أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم} قال: هو صياح الشيطان يوم أحد قتل محمد إلى قوله {أمنة نعاسا} قال: القي عليهم النوم. واخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال: فينا نزلت في بني سلمة وبني حارثة {إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا } وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر الفهرى يمد المشركين فشق عليهم فانزل الله: {ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم} إلى قوله {مسومين} فبلغت كرزاً الهزيمة فلم يمد المشركين ولم يمد المسلمون بالخمسة.

(1) ابن هشام ج2 ص74.

(2) المرجع السابق ص73.

وفي أسباب نزول قوله تعالى {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون} روى أحمد ومسلم عن أنس أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج وجهه فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فانزل الله الآية وروى أحمد والبخاري عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم العن فلانا، اللهم العن الحارث بن هشام اللهم العن سهيل بن عمرو اللهم العن صفوان بن أمية فنزلت الآية إلى آخرها فتيب عليهم كلهم[1].

وفي سبب نزول قوله تعالى {ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون} اخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس أن رجالاً من الصحابة كانوا يقولون: ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر، أوليت لنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، ونبلي فيه خيراً، ونلتمس الشهادة والجنة والرزق والحياة فأشهدهم الله أحدا فلم يلبثوا الأمن شاء الله منهم فانزل الله الآية[2].

أسباب نزول قوله تعالى {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب علي عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين} اخرج ابن المنذر عن عمر قال: تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، فصعدت الجبل فسمعت اليهود تقول قتل محمد، فقلت لا أسمع أحداً يقول: قتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون فنزلت هذه الآية.

واخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال: لما أصابهم يوم أحد ما أصابهم من القرح، وتداعوا نبئ الله قالوا: قد قتل، فقال أناس: لو كان نبياً ما قتل، وقال أناس: قاتلوا علي ما قاتل عليه نبيكم، حتى يفتح الله عليكم أو تلحقوا به، فانزل الله الآية، وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي نجيح، إن رجلاً من المهاجرين مر علي رجل من الأنصار وهو يستشحط في دمه فقال: أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم، فنزلت، واخرج ابن راهوية في مسنده عن الزهري: أن الشيطان صاح يوم أحد: أن محمداً قد

(1) آل عمران الآية 121. وأسباب النزول ص109. وما بعدها.

(2) آل عمران الآية 143 وأسباب النزول ص114.

قتل، قال كعب بن مالك وأنا من عرف رسول الله ﷺ رأيت عينيه من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: هذا رسول الله ﷺ فأنزل الله الآية[1].

وفي أسباب نزول قوله تعالى: {ثم انزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشي طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء، قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليتلي الله ما في صدوركم ويمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور}[2] اخرج ابن راهوية عن الزبير قال: لقد رأيتني يوم أحد حين اشتد علينا الخوف، وأرسل علينا النوم فما منا أحد إلا ذقنه في صدره، فو الله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير: لو كان لنا من الأمر شيء، ما قتلنا ها هنا فحفظتها فانزل الله في ذلك {ثم انزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا} إلى قوله {عليم بذات الصدور}[3].

وفي سبب نزول قوله تعالى {أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها} اخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب قال: عو قبوا يوم أحد بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة علي رأسه، وسال الدم علي وجهه فانزل الله الآية[4].

وفي أسباب نزول قوله تعالى {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عد ربهم يرزقون} روي احمد وابن داود والحاكم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد انهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله: إنا أبلغتهم عنكم فانزل الله هذه الآية[5].

---

(1) لباب النقول في أسباب النزول ص 114 والآيه 144 سورة آل عمران.
(2) آل عمران الآية 154.
(3) لباب النقول 115.
(4) المصدر السابق 116.
(5) آل عمران الآية 169 وأسباب النزول 118.

وقد تضمنت سورة الأنفال آيات بين الله لنا فيها كيف جمع المشركون ما لهم لغزوة أحد فقال تعالى: {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون}[1] قال ابن اسحاق حدثني الزهري ومحمد بن يحي بن حبان، وعاصم بن عمير بن قتاده، والحصين بن عبد الرحمن قالوا: لما أصيب قريش يوم بدر ورجعوا إلى مكة مشي عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن امية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم فكلموا أبا سفيان ومن كان له في ذلك العير من قريش تجارة، فقالوا يا معشر قريش أن محمداً قد فرقكم وقتل خياركم فأعينوننا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثاراً ففعلوا، ففيهم كما روي عن ابن عباس أيضاً نزلت الآية.

ونزل قوله تعالى {من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه} في انس بن النظر غاب عن بدر وحزن فشهد أحداً ويثرب[2].

واخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن عتبة قال: نزلت في أبي سفيان انفق علي المشركين أربعين أوقية من ذهب، واخرج ابن جرير عن ابن أبزي سعيد بن جبير قالا: نزلت في أبي سفيان استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش ليقاتل بهم رسول الله ﷺ[3].

وفي سورة النحل قال الله تعالى {وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون}.

وفي أسباب نزولها اخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والبزار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على حمزه حين استشهد وقد مثل به فقال: لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به}[4]

---

(1) الأنفال الآية 36.

(2) أسباب النزول 337 وهو الذي قال عندما سمع بأن النبي قتل في أحد: موتوا على مامات عليه.

(3) أسباب النزول 220.

(4) النحل الآيات 136/ 138 .

إلى آخر السورة. فكف رسول الله ﷺ وامسك عما أراد. واخرج الترمذى وحسن والحاكم عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزه فمثلوا بهم فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم فلما كان يوم فتح مكة انزل الله { وان عاقبتم} وظاهر هذا تأخر نزولها إلى الفتح وفي الحديث الذي قبله نزولها بأحد، وجمع ابن الحصار أنها نزلت أولاً بمكة ثم ثانياً بأحد ثم ثالثاً يوم الفتح تذكيراً من الله لعباده[1].

العبر في هذه الغزوة العظيمة:

1- إرساء الرسول ﷺ لمبدأ الشورى فيما لم يرد فيه وحي وقد كان لكلا الفريقين حجة قوية. فأما حجة من قال بالبقاء في المدينة فهي أن المدينة امنع للمسلمين وأحصن، وبإمكانهم السيطرة علي المشركين إذا هاجموهم داخلها؛ وكان الرسول ﷺ مع هذا الرأي. أما حجة الراغبين في الخروج لملاقاة المشركين فلكي لا يتهمهم المشركون بالجبن، ورغبة من الذين تخلفوا عن غزوة بدر في ألا يحرموا فضل المشاركة الفعلية في المواجهة وليقضي الله أمرا كان مفعولا.

2- شعور المتحمسين للخروج بالندم علي إلحاحهم فقد جاءوا للرسول ﷺ قائلين: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد فبين لهم مبدأ عظيماً في قوله: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل؛ فالتردد صفة لا تتفق مع كمال النبوة.

3- الإخلاص هو الأساس: فقد كان قزمان من أشجع المقاتلين وقتل عددا من المشركين ولكن الرسول ﷺ قال هو في النار لأنه لم يقاتل عن دينه وعقيدته بإخلاص وإنما قاتل حمية كما قال عن نفسه وفي بعض الروايات إنه قتل بيد أحد المشركين وفي رواية أن جراحة أصابته فلم يصبر عليها وقتل نفسه.

4- مخالفة الرماة لأمر الرسول كان سبباً فيما حل بالمسلمين من ارتباك وما أصاب الرسول

(1) أسباب النزول ص274.

ﷺ من جراحات، ولو لم يخالفوا أمره لكانت شر هزيمة للمشركين، ولكن ليبين الله أن طاعة الرسول واجبة وهي من طاعة الله.

5- تعتبر غزوة أحد نصرا لما اظهر فيها المسلمون من شجاعة نادرة ولأن الله حمى فيها رسوله وهو مكشوف أمام المشركين، ولأن المسلمين عرفوا أن الخير في طاعة أمر الرسول والشر في مخالفة أمره، وقد محص الله المؤمنين.

6- لم يعاتب الرسول ﷺ الرماة على مخالفة الأمر على ما سببته هذه المخالفة من ضرر؛ تقديراً لما بذلوا من جهد في حماية ظهور المسلمين فقد ابلوا بلاء حسنا، وليعلمنا العفو والصفح والرحمة، وألا ننسى حسنات المحسنين إذ أبدرت منهم إساءة.

7- لو انتصر المسلمون مع مخالفة الأمر من الرسول ﷺ لصارت المخالفة أمراً عادياً ولا استهانوا بأوامره.

8- يريد الله تعالى للمسلمين ما هو أعلا من الغنائم وأثمن وأبقى وهي الجنة، أما الغنائم فليست هدفاً ولا غاية لهذا كان الرسول يعلمهم دائماً ألا يخرجوا للغنيمة. وإنما هي أمر عارض وليست هدفاً أصليا يستحوذ علي همة المجاهدين وتفكيرهم.

9- لا تجوز الاستعانة بالكافرين وقد رد الرسول ﷺ حلفاء عبد الله بن أبي من اليهود لما علم إنهم لم يسلموا وقال: إنا لا نستعين علي المشركين، بالمشركين، ونقص العدد بذلك ثلاثمائة. ولكن العبرة ليست بالعدد وقد أرسى الرسول بذلك حكماً ولم يجامل ابن أبي ولم يأخذ بالمصلحة الظاهرة وهي تخالف أصول الإسلام

10- البكاء جائز والنواح حرام ولهذا حرم الرسول ﷺ النياحة في الوقت الذي قدر فيه عاطفة الزوجة ووقع نعى زوجها عليها.

11- وجوب معرفة قوة العدو وتفويض الأمر لله مهما كانت القوة المضادة ولهذا قال ﷺ اللهم بك أصول وبك أجول فلا قوة إلا بالله وقد طلب النبي ﷺ من الحباب بن المنذر الذي بعثه لاستطلاع العدو ألا يخبره أمام الصحابة إذا كان العدد كبيرا حتى لا يؤثر في معنويات أصحابه فليسوا يقيناً يتمتعون بما يتمتع به ﷺ.

غزوة حمراء الأسد 16 شوال سنة ثلاث

هذه الغزوة تعتبر تكملة لغزوة أحد فهي أشبه ما تكون بما يسمي تطهير المواقع وملاحقة العدو حتى لا تحدثه نفسه بالرجوع والالتفاف علي المدينة وبعد رجوعه ﷺ إلى المدينة بات على باب بيته عدد من الصحابة يحرسونه فلما أصبح يوم الأحد 16 شوال[1] أمر الرسول ﷺ بلالا أن ينادى في الناس: إن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج معنا إلا من شاهد القتال بالأمس.

وكان أغلب من حضر أحد مجروحاً فكان بأسيد بن حضير سبع جراحات وخرج من بني سلمة وحدهم أربعون جريحاً وكان بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً وبخراش بن الصمة عشر جراحات وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحاً وبقطبة بن عامر تسع جراحات، ولكنهم لم يتباطئوا وقد كان الرسول ﷺ مثلهم الأعلى فهو مجروح ولكنه لم يأبه لجراحه وقد كانوا كلهم يقولون ما تهمنا جراحنا وإنما تهمنا جراح رسول الله ﷺ ومدحهم الله بقوله: {الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا اجر عظيم}[2].

وخرج الذين حضروا أحد ولم يخرج معهم أحد من غيرهم إلا جابر بن عبد الله الذي جاء إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله: إن مناديا ينادى ألا يخرج معنا أحد إلا من حضر القتال بالأمس، وقد كنت حريصاً علي الحضور والخروج معكم إلا أن أبي خلفني علي أخوات لي، وخرج مع المسلمين إلى أحد ورزقه الله الشهادة التي طلبها فأذن لي بالسير معك فأذن له[3].

وحمل اللواء علي بن أبي طالب وقيل أبو بكر الصديق وقال الرسول ﷺ لطلحة: تري القوم الآن؟ قال: هم بالسيالة فقال ﷺ: ذلك الذي ظننت أما إنهم يا طلحة، لن ينالوا منا مثل أمس حتى يفتح الله مكة علينا.

---

(1) انظر: محمد رسول الله ص260 وفي المغازي 8 شوال ج1 ص334 وحمراء الاسد مكان على بعد 8 أو عشرة اميال من المدينة

(2) آل عمران الآية الآية 172.

(3) المغازى للواقدى ج1 ص336.

وأرسل ﷺ ثلاثة نفر طليعة في إثر القوم ووجدوا رجلين مقتولين ووجدهما المسلمون عندما نزلوا بحمراء الأسد فدفنوهما.

وأقبل معبد بن معبد الخزاعي علي الرسول ﷺ وأعلن إسلامه وأمره الرسول أن يلحق بأبي سفيان فيخذله.

وكان ما توقعه المسلمون صحيحاً فإن المشركين وهم راجعون قالوا ما فعلنا شيئا كان علينا أن نهاجمهم في المدينة ونكسر شوكتهم وكاد المحرضون علي العودة أن يتغلب رأيهم لولا أن صفوان بن أمية قال لهم: لا ترجعوا فربما تجمع عليكم من تخلف من الخزرج ورجوعكم والدولة لكم خير من رجوعكم والدولة عليكم، فقال فيه الرسول: أرشدهم صفوان وليس برشيد وفي تلك اللحظات لحق بهم معبد الخزاعى ولم يعلم بإسلامه أحد فسأله أبو سفيان ما رأيت في طريقك فقال: رأيت محمدا في جيش كبير لم أر مثله قط يطلبكم، واقنع أبا سفيان بعدم الرجوع. ومر ركب بابي سفيان فقال لهم ابلغوا محمدا إني قد أجمعت الكرة لاستئصاله، وقال الركب للمسلمين أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فقال المسلمون حسبنا الله ونعم الوكيل.

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما رجع المشركون من أحد قالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب اردفتم فبئس ما صنعتم ارجعوا فسمع رسول الله فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد أو بئر أبي عتبة فانزل الله الآية[1].

وانصرف أبو سفيان والجيش أخذا بنصيحة معبد ومن كان علي رأى صفوان بن أمية من أن الرجوع مخاطرة ربما يضيعون فيها.

وقد أقام ﷺ بحمراء الأسد من الأحد إلى الأربعاء ووجد الرسول ﷺ اباعزة الجمحي الشاعر الذي كان الرسول قد من عليه عندما اسر في بدر وأطلق سراحه بدون فداء إلا انه خرج مع المشركين وآذى المسلمين بشعره وكان الرسول قد اشترط عليه إلا يظاهر المشركين ولا يؤذى المسلمين بشعره فأمر الرسول ﷺ بقتله فقال أبو عزة:

(1) أسباب النزول ص 120.

يا محمد اقلني وامنن علي ودعني لبناتي وأعطيك عهدا بالا أعود لمثل ما فعلت فقال ﷺ: لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدا مرتين. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين وأمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه، فهل يعتبر المسلمون وقد لدغوا مرات من جحر واحد. كما اعدم جاسوسا من جواسيس مكة وهو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص الذي دخل المدينة وأمنه ابن عمه عثمان بن عفان رضي الله عنه فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ فأمنه على ألا يزيد على ثلاثة أيام فإن زاد عليها قتله فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامي أقام أكثر من ثلاثة أيام يتجسس لحساب قريش ولما رجع المسلمون هرب فأمر الرسول ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فتعقباه وقتلاه.

ورجع الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن ضمن عدم رجوع العدو وتطويقه المدينة.

ومن أهم العبر:

1- الاحتياط وحسن التدبير.

2- الحرب النفسية وتدمير الروح المعنوية للعدو.

3- الحزم فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين فالمؤمن كيس فطن وقد أوتي الرسول ﷺ جوامع الكلم فتاتي الحكمة على لسانه سهلة لينة سلسة.

4- وجوب قتل الجاسوس لما يمثله من خطر على الأمة.

5- وجوب دفن جثة الآدمي إكراما لابن آدم الذي كرمه الله ولو كان غير مسلم.

6- ثبات المسلمين في أحد ضيع النصر الذي كان يترقبه العدو فهم أنفسهم غير راضين عن رجوعهم بنصر غير كامل فليس لكم أن تتبجحوا بنصر مزعوم.

7- صدق إيمان المؤمنين الذين استجابوا لنداء الجهاد وهم في حالة من الألم وقد اثخنتهم الجراح وقد امتدحهم الله فقال {اللذين استجابوا الله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم وأتقو أجر عظيم}.

بعث الرجيع صفر سنه أربع

جاء إلى رسول الله ﷺ قوم من عضل وقارة وقالوا أن فيهم مسلمين وطلبوا من يعلمهم

الدين ويقرئهم القرآن فأرسل معهم ستة في رواية ابن إسحاق وعشرة في رواية البخاري وفي رواية أمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي وهي رواية ابن إسحاق، وعاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب في رواية البخاري

ولما وصلوا بالرجيع وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجدة استصرخوا عليهم حيا من هذيل يقال لهم بنو لحيان وكانوا مائة رام فأحاطوا بهم وكانوا لجأوا إلى فدفد وقالوا لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا فأما عاصم فأبى النزول فقاتلهم في أصحابه فقتل منهم سبعة بالنبل ثم قتل وبقي خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ورجل آخر فأعطوهم العهد ولكنهم غدروا بهم وربطوهم فامتنع الرجل الثالث فقتلوه وباعوا خبيبا وزيدا بمكة فأما خبيب فبقي مسجونا مدة ثم خرجوا به ليقتلوه فطلب منهم أن يصلي ركعتين قبل أن يقتل فصارت سنة، وقال لولا أن تقولوا انه خاف الموت لأطلت الركعتين.

وعندما أرادوا قتلة قال أبو سفيان، أيسرك أن محمدا عندنا نضرب عنقه وانك في اهلك؟ فقال: لا والله ما يسرني إني في أهلي، وأن محمدا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة توذيه[1] ثم صلبوه وقال عند ذلك:

ولست أبالي حين اقتل مسلما :: على أي جنب كان في الله مصرعي.

وقد قتله عقبة بن الحارث وكان خبيب قتل أباه يوم بدر، وأما زيد بن الدثنة فقتله صفوان بن أمية بابيه.

مأساة بئر معونة:

وفي نفس الشهر وقعت مأساة اشد هي مأساة بئر معونة . وملخص هذه المأساة أن براء عامر بن مالك – ملاعب الأسنة – وقد قدم علي الرسول ﷺ فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يرفض وطلب من الرسول ﷺ أن يرسل معه من يدعو الناس في نجد إلى الإسلام وهو يجير من يرسله إليهم فبعث معه أربعين رجلا في رواية ابن إسحاق وسبعين في رواية البخاري وأمر عليهم المنذر بن عمرو وكانوا من خيار الفضلاء والقراء ولما وصلوا بئر معونة أرسلوا

(1) ولهذا قال أبو سفيان: لم ار احدا يحبه اصحابه كما يحب اصحاب محمد محمدا.

حرام بن ملحان بكتاب الرسول ﷺ إلى عامر بن الطفيل فقتل الرسول واستنفر بني عامر لقتال الباقين فأبوا عليه؛ لأنهم في جوار أبي براء واستنفر بني سليم فجاءت منهم عصبة أحاطوا بالصحابة وتقاتلوا حتى قتل الصحابة جميعاً إلا كعب بن زيد فقد ارتث بين القتلى، ثم استشهد يوم الخندق.

وكان عمر بن أمية الضمرى والمنذر به عقبه بن عامر في سرح المسلمين فرأيا الطير علي موضع الوقعة فنزل المنذر وقاتل المشركين حتى قتل وأسر عمر بن أمية ثم جز عامر بن الطفيل ناصيته لما اخبره انه من مضر واعتقه في رقبة كانت علي أمه.

وقد قتل عمر في طريقه رجلين من بني كلاب أخذا بثأر الصحابة الذين قتلوا غدراً ولم يعلم بأن معهم عهداً من رسول الله ﷺ فلامه الرسول علي ذلك.

فدفع الرسول ديتهما وهذا ما جعله يطلب مساهمة يهود بني النظير كما سيأتي.

وتألم الرسول ﷺ اشد الألم علي قتلي الرجيع وبئر معونة وبقي يدعو علي الغادرين شهراً في صلاة الفجر. وهى مأساة أساسها الغدر.

غزوة بني النضير:

خرج رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه إلى بني النضير وكلمهم أن يعينوه على فدية الرجلين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى.

وكانت المعاهدة التي عقدها الرسول ﷺ تنص علي ذلك فاظهروا طاعة الأمر إلا إنهم كعهدهم دائماً أهل غدر، فبيتوا في ما بينهم أمر قتله بإلقاء حجر كبير يقع عليه وهو جالس قرب جدار، ونصحهم سلام بن مشكم بالا يفعلوا حتى ينقض العهد ولكن عمرو بن جحاش أصر ومن معه علي تنفيذ المؤامرة، وأوحي الله إلى رسوله ﷺ فنهض وخاب تدبيره بسبب لا دخل لهم فيه كما نجي عيسي عليه السلام من مؤامرة اليهود.

وأرسل الرسول ﷺ محمد بن مسلمة يقول لهم علي لسان الرسول: أخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها وقد أجلتكم عشراً فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه. ولم يجدوا مناصاً من الخروج، إلا أنهم استمعوا لعبد الله بن أبي وهو ينصحهم بعدم الخروج قائلا إن لكم

حصوناً وأن معه ألفين يدخلون معكم الحصن لينصروكم وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، فناوروا، وأرسلوا إلى الرسول ﷺ قائلين:

لن نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك. وسار النبي ﷺ إليهم، والتجأ اليهود إلى حصونهم فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة وساعدهم النخيل علي ذلك فأمر الرسول ﷺ بقطع النخيل وتحريقها: لا غاظتهم من جهة ولكي لا تكون عونا لرماتهم من جهة أخرى واخرج البخاري أن سورة الحشر نزلت في بني النضير. وقد اخرج وغيره عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع ودى البويرة (وهو اسم لنخل بني النضير) فانزل الله: {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة علي أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين}[1] واخرج ابن إسحاق عن زيد بن رومان قال: لما نزل رسول الله ﷺ ببني النضير تحصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه فما بال قطع النخل وتحريقها، فنزلت الآية[2].

وخانهم حلفاؤهم وراح تحريضهم هباء واستمر الحصار ست ليال وقيل خمس عشرة ليلة وعندها أرسلوا للرسول ﷺ يطلبون الخروج فأمرهم بالخروج بما تحمل الإبل على أن يتركوا السلاح. فنزلوا علي ذلك وخربوا بيوتهم بأيديهم لحمل الأبواب والنوافذ وجذوع السقف وتحملوا علي ستمائة بعير ونزل رؤساؤهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق إلى خيبر وذهب اغلبهم إلى الشام وأسلم منهم اثنان: يأمن بن عمرو وأبو سعد بن وهب فأحرزا أموالهما[3].

وبذلك تم إجلاؤهم عن المدينة وكفي الله المؤمنين مكرهم ومؤامراتهم وبعد هذه الغزوة سمع الرسول ﷺ بتحشد جموع البدو الأعراب من بني محارب وبني ثعلبة من غطفان فسارع إلى تأديبهم، وكان لذلك أثره فما أن يسمع أولئك البدو القساة من المتمردين بأن المسلمين قد خرجوا حتى يتحصنوا بقمم الجبال ويفروا هاربين.

---

(1) الحشر الآية 5 وأسباب النزول ص413.

(2) المصدر السابق والصفحة.

(3) انظر المراجع السابقة.

غزوة ذات الرقاع:

وقد سميت بهذا الاسم لأسباب كثيرة ذكرتها كتب المغازي والسير وأصحها ما رواه البخاري عن أبي موسي الأشعرىٰ قال: خرجنا مع النبي ﷺ ونحن ستة بيننا بعير نتعقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي وسقطت أظفاري فكنا نلف علىٰ أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: صلىٰ رسول الله ﷺ بطائفة ركعتين ثم سلم وطائفة مقبلون علىٰ العدو، فجاءوا فصلىٰ بهم ركعتين أخريين ثم سلم.

وذكر ابن إسحاق القصة التي سبقت الإشارة إليها في غزوة ذي أمر عندما رفع دعثور بن الحارث السيف لقتل الرسول وحماه الله منه فوقع السيف من يده، وذكر اسم غورث في روايته، وقال حدثني يزيد بن رومان أن قوله تعالىٰ {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلي الله فليتوكل المؤمنون}[1].

إنما أنزلت في عمرو بن جحاش اليهودىٰ الذي أراد إلقاء الحجر علي الرسول ﷺ في بني النضير. وفي أسباب النزول للسيوطي إشارة إلىٰ عدة أسباب منها ما ذكره ابن إسحاق[2].

وكان عدد المقاتلين من المسلمين سبعمائة وقال البخاري إن هذه الغزوة كانت في السنة الرابعة وقال الشيخ صفي الدين المباركفورىٰ لا يصح أن هذه الغزوة في السنة الرابعة لأن الرسول ﷺ صلىٰ فيها صلاة الخوف وكانت شرعة صلاة الخوف في عسفان وكانت بعد الخندق في أواخر السنة الخامسة[3].

وعلي الرغم من قوة الدليل المذكور وما قاله البخاري فإن الواقدىٰ يثبت إنها سنة أربع ووافقه ابن هشام والمصادر التي اطلعت عليها ولم يحدث في هذه الغزوة قتال لتفرق المشركين في قمم الجبال.

---

(1) المائده الآية 11.

(2) أسباب النزول ص175.

(3) الرحيق المختوم ص272. وأسباب النزول ص157. وفيه أن صلاة الخوف شرعت في عسفان وعند ابن سعد سنة 5.

غزوة الأحزاب أو الخندق شوال سنة خمسة[1]:

ذهب إلى مكة بعض رؤساء اليهود يؤلبون قريشا علي النبي ﷺ . وهكذا عادة اليهود، والشيء من معدنه لا يستغرب، وقال لهم المشركون في مكة انتم أهل الكتاب الأول واعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وانتم أولى بالحق فنزل فيهم قوله تعالى {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا} إلى قوله تعالى {ملكا عظيما}[2] ولما سمعت قريش منهم ذلك نشطوا لما دعوهم إليه من حرب الرسول ﷺ، ثم البوا غطفان أيضاً. ولما سمع الرسول ﷺ بذلك حفر الخندق بناء علي إشارة من سلمان الفارسي ولم يكن العرب يعرفون هذه الطريقة من طرق الحماية وعرقلة العدو، وشرعوا في حفر شمالي المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، وهذه هي الجهة التي كانت عورة تؤتي المدينة من قبلها أما بقية الجهات فكانت محمية بالبيوت والنخيل

وقد اقتسم المسلمون المسافة المراد حفرها وتشاء الصدفة أن يكون الجزء المخصص للرسول ﷺ صخريا ولكنه ﷺ ضرب المثل الأعلى في التحمل والصبر، وضرب المسلمون أمثلة باهرة في صدق العزيمة لحماية مدينتهم، والدفاع عن عقيدتهم وأنفسهم وهم ينشدون أبياتا لعبد الله بن رواحه

اللهم لولا أنت ما اهتدينا	:	ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينة علينا	:	وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا	:	وإن أرادوا فتنة أبينا

وفي هذه الأرجوزة يتجلي الإيمان العميق فالأمر كله لله.

وأقام الجيش في الجهة الشرقية مسنداً ظهره إلى سلع وهو جبل مطل علي المدينة وعدتهم ثلاثة آلاف محارب مقودهم أبو سفيان. وأدهشتهم فكرة الخندق وصاروا يتراشقون النبل،

(1) وقال الزرقاني غزوة الاحزاب وقعت سنة 4. وقال ابن هشام سنة 5. وقال الواقدي سنة 4.

(2) النساء الآيات 51 / 54 وأسباب النزول ص137.

واكرهوا خيولهم علي اقتحام الخندق فهوى نوفل بن عبد الله فاندقت عنقه وبرز علي بن أبي طالب لعمرو بن ود وقتله وأصيب سعد بن معاذ بسهم قطع شريان ذراعه، واستمرت المناوشة يوما كاملا حتى شغل المسلمون عن الصلاة وصلوها قضاء.

ومما زاد الأمر صعوبة على المسلمين أن يهود بني قريظة استغلوا حصار المشركين للمدينة فذهب حيي بن اخطب سيد بني النضير الذين أجلاهم الرسول ﷺ إلى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وزين له نقض العهد مع الرسول وقتال المسلمين، فاشتد الحال علي المسلمين: حصار من الخارج وتمرد في الداخل واحتاط ﷺ للأمر فأرسل مسلمة بن أسلم في مائتين وزيد بن حارثه في ثلاثمائة لحراسة الذرية والنساء داخل المدينة خوفاً من غدر اليهود. وأرسل الزبير بن العوام يتأكد له من صحة الخبر الذي سمع ولما رجع أكد له صحة الأخبار التي وصلت المسلمين، وان يهود بني قريظة قد نقضوا العهد ودعا الرسول ربه فقال «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم».

الحرب خدعة:

في هذه اللحظات الحرجة جاء نعيم بن مسعود إلى الرسول ﷺ، وأعلن إسلامه وهو من غطفان وصديق لقريش ولليهود وقال يا رسول الله: لم يسمع بإسلامي أحد فمرني أساعدك فقال ﷺ: أنت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة. فخرج من عنده وتوجه إلى بني قريظة الذين نقضوا العهد مع الرسول ﷺ فعرفوه لأنه صديقهم وأكرموه فقال لهم: تعرفون ودي لكم وخوفي عليكم فاكتموا عني، وقال: لقد عرفتم ما وقع لبني قينقاع والنضير وأجلائهم وأن قريشا وغطفان ليسوا مثلكم فبإمكانهم انتهاز الفرصة والرجوع إلى بلادهم إذا انتصر محمد أما انتم فساكنون معه ولا قبل لكم بحرية فخذوا من قريش وغطفان رهائن سبعين من أشرافهم فاستحسنوا رأيه ثم ذهب إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال: تعرفون ودي لكم فاكتموا عني: إن بني قريظة قد ندموا علي ما فعلوا فقالوا لمحمد نعطيك سبعين من أشراف قريش وترد علينا إخواننا بني النضير فرضي بذلك. وهاهم سيرسلون إليكم في طلب الرهائن السبعين. ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش فأرسل أبو سفيان لبني قريظة يأمرهم بالقتال غدا فقالوا غداً سبت ونحن لا نقاتل في السبت، ومع ذلك لا نقاتل حتى تعطونا رهائن حتى لا تذهبوا وتتركونا

فتحققت قريش وغطفان من صدق ما قال نعيم بن مسعود فتفرقوا وخاف بعضهم بعضا وأرسل الله علي المشركين ريحاً شديدة زلزلتهم وبلغت الفوضى مبلغا لا نهاية له وسمع الرسول ﷺ الجلبة والضوضاء، فأمر حذيفة بن اليمان الذي جاهد نفسه بصعوبة من شدة البرد فرآهم يتهيؤن للرحيل وقال ﷺ لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم وكان ذلك حتى فتح مكة وبلغ من شدة خوف أبي سفيان أن حل عقال بعيره وحاول الفرار فقال له صفوان بن أميه انك رئيس القوم فلا تتركهم ومضى وبقى خالد بن الوليد في جماعة يحمي ظهور الهاربين.

ما نزل من القرآن في الأحزاب

صور القرآن الكريم هذه الغزوة العظيمة وأهوالها تصويراً دقيقا ووصفها وصفاً بليغا يغنينا عن ما تقول كل المصادر. فقد كشف الله المنافقين الذين لم يعملوا بإخلاص في حفر الخندق فقد اخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما قالوا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب بجمع الأسيال من رومه (بئر بالمدينة) قائدها أبو سفيان وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنعمي إلى جانب أحد وجاء إلى رسول الله ﷺ الخبر فضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه وعمل المسلمون فيه، وأبطأ رجال من المنافقين وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذ أنابته النائبة من الحاجة التي لابد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ.

ويستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له، وإذا قضى حاجته رجع فانزل الله في أولئك المؤمنين {إنما المؤمنون الذين أمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستئذنوه إن الذين يستئذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استئذنوك لبعض شانهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا[1] قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً[2] فليحذر الذين يخالفون عن

(1) النور (62-63) ،عن ابن عباس كانوا يقولون: يا محمد أبا القاسم. فأنزل الله تعالى {لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا}، فقالوا: يانبى الله، يارسول الله.

(2) لواذا: يتستر الواحد منهم بغيره في اثناء خروجه.

أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ألا إن لله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما انتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم}[1].

وجاء في أسباب نزول قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم: إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا} جاء في أسباب نزولها ما أخرجه البيهقي في الدلائل عن حذيفة قال: لقد رايتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعودا، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت قط علينا ليلة أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له فيتسللون إذا استقبلنا النبي ﷺ رجلا حتى أتي على فقال: ائتني بخبر القوم فجئت فإذ الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم بها وهم يقولون: الرحيل الرحيل فجئته فأخبرته خبر القوم فانزل الله الآية[2].

واخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال: خط رسول الله الخندق عام الأحزاب فاخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة فأخذ رسول الله ﷺ المعول فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها فكبر وكبر المسلمون ثم ضربها الثالثة فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لا بتيها فكبر وكبر المسلمون، فسئل عن ذلك فقال: ضربت الأولى فأضاء لي قصور الحيرة ومدائن كسرى وأخبرني جبريل إن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثانية فأضاءت لي قصور الحيرة من أرض الروم. وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة فأضاءت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها. فقال المنافقون: ألا تعجبون يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم انه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وإنها تفتح لكم، وانتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا؟

(1) أسباب النزول ص321. والآيه (62-64) من سورة النور.

(2) الاحزاب الآية 9 وأسباب النزول 336.

فنزل القرآن {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا}[1] .

وأخرج جرير عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في متعب بن قشير الأنصارى وهو صاحب هذه المقالة، واخرج ابن إسحاق والبيهقى أيضاً عن عروة بن الزبير ومحمد بن كعب القرضي وغيرهما قال: قال متعب بن قشير كان محمد يرى أن يأكل من كنوز كسرى وقيصر، واحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط، وقال اوس بن قيظي في ملأ من قومه: إن بيوتنا عورة وهى خارجة من المدينة، ائذن لنا فنرجع إلى نسائنا وأبنائنا فأنزل الله على رسوله حين فرغ ما كانوا فيه من البلاء يذكره نعمة عليهم وكفايته إياهم، بعد سوء الظن منهم ومقالة من قال من أهل النفاق {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود}[2] .

وقد وصف لنا القرآن الكريم حالة الخوف التي اعترت المسلمين ابلغ وصف في قوله تعالى {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا}[3].

فليس هناك وصف للخوف ابلغ من قوله تعالى وبلغت القلوب الحناجر فسبحان من هذا كلامه وقد صدق الله وعده ونصر عبده واعز جنده وهزم الأحزاب وحده، واستشهد من المسلمين ستة وقتل من المشركين ثلاثة.

من العبر في هذه الغزوة:

1- تخذيل العدو فالحرب خدعة.

2- الأخذ بالرأي المناسب، واحترام ما يراه الغير كما اخذ الرسول بفكرة حفر الخندق .

3- الاحتياط والحذر من المنافقين والمرجفين

---

(1) الآحزاب الآية 12 وأسباب النزول ص237.

(2) الآحزاب الآية 9 وأسباب النزول ص337.

(3) الآحزاب الآيتان 10 / 11.

4- من كان مع الله فالله معه، فقد فرج الله كربة المسلمين وجلا عنهم الغم لصدق إيمانهم بالله ﷻ.

غزوة بني قريظة سنة خمس[1]

لما رجع الرسول ﷺ من غزوة الأحزاب وأراد أن يخلع لباس الحرب أوحى إليه ربه أن يذهب إلى بني قريظة عقاباً لهم على غدرهم ونقضهم العهد في أحرج الأوقات فقال لصحابته لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة. ومن الصحابة من فهم أن الغرض هو الاستعجال فصلى في الطريق ومنهم من فهم النهى على ظاهرة فاخره، وصلى منهم العصر بعد العشاء. وحمل الراية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وتقدم بها فلما اقترب من الحصون سمع من اليهود مقالة قبيحة في الرسول ﷺ فلما لقي الرسول قال علي كرم الله وجهه لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث.

قال: لم؟ أظنك سمعت منهم لي أذى. قال نعم يا رسول الله.

قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا، فلما دنا الرسول ﷺ من حصونهم قال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وانزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولا.

والأمر الذي جعل الرسول ﷺ يقول هذا القول قبح ما قالوا من جهة، ونقضهم العهود من جهة أخرى وهو الذي آمنهم على أموالهم واقرهم على ديانتهم فجازوا إحسانه بالإساءة، ولان هذا الوصف وصفهم به الله فهو حق فقد جعل الله منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت.

ودخل حيى بن اخطب الحصون معهم وفاء منه بما عاهد عليه رئيسهم كعب بن أسد، ولما أيقنوا أن الرسول ﷺ لن يتركهم قال لهم كعب أخيركم في ثلاث:

إما أن ندخل هذا الدين وانتم تعرفون أن رسول الله حق فنؤمن على أموالنا وأنفسنا،

(1) في هذا العام فرض الحج وهو ما عليه اغلب المصادر وقيل سنة ثمان. والقرطبي عام الاحزاب سنة ثلاث. وفي فقه السيره للبوطي سنة عشر وهو مستبعد لأن أبا بكر حج سنه 9.

وإما أن نقتل نساءنا وذريتنا ونخرج خفافا نقاتله حتى يهلك أو نهلك، وإما أن ننزل عسى أن نجد من محمد غرة. فرفضوا الحلول الثلاث.

وطلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا. فأرسله ﷺ فلما رأوه قاموا إليه وصار النساء والصبيان يبكون فرق لهم وقالوا له: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم وأشار بيده على حلقه انه الذبح.

ونزل قول الله تعالى {يأيها اللذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون}[1] وفي سبب نزولها روى سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن أبي قتادة قال: نزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر سأله بنو قريظة يوم قريظة ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه يقول: الذبح فنزلت قال أبو لبابة مازالت قدماي حتى علمت إني خنت الله ورسوله[2].

وانطلق أبو لبابة هائما على وجهه وربط نفسه في عمد من عمد المسجد وقال لا ابرح مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله إلا يطأ بني قريظة أبدا ولا أرى في بلد خنت فيه الله ورسوله. فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وكان قد استبطأه قال: أما والله لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

ونزلت آية قبول توبته على رسول الله ﷺ في بيت أم سلمة فقامت إليه تبشره، وقام إليه الناس ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده فأطلقه وهو خارج لصلاة الصبح[3].

ولما نزلوا على أمر رسول الله ﷺ جعل أمرهم إلى سعد بن معاذ لما طلب منه الأوس أن يعطيهم ما أعطى الخزرج في مواليهم فقال: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم؟ قالوا بلى فحكم فيهم سعد بن معاذ، ولا يزال يعانى من السهم الذي أصيب به عندما رمى يوم الأحزاب كما سبق وأن اشرنا.

---

(1) الانفال الآية 27.

(2) أسباب النزول ص215.

(3) هذا ما اثبته ابن هشام وفي أسباب النزول كذلك وفيه أيضاً ربط نفسه عندما تخلف عن غزوه تبوك كما سبق.

واقبلوا معه إلى الرسول ﷺ وهم يقولون: أحسن في مواليك فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

وقال الرسول ﷺ عندما اقبل سعد على المسلمين قوموا إلى سيدكم. فقال المهاجرون أراد الأنصار، وأما الأنصار فقالوا أراد بها الجميع وتقول بعض المصادر إن مكانة سعد عند الأنصار كمكانة أبي بكر عند المهاجرين، ومن المعروف أن المسلمين قد اندمجوا مهاجرين وأنصاراً لا فرق، وقد أصدر فيهم سعد رضي الله عنه حكمه وقبل ذلك صاح على بن أبي طالب: ولأذوقن ما ذاق حمزه أو لأفتحن حصنهم وكان معه الزبير بن العوام فلما سمعوا ذلك قالوا يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ

حكم سعد بن معاذ في بنى قريظة:

تقتل الرجال، وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء.

فقال ﷺ لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة أي سماوات. وكانوا ستمائة أو سبع مائة وفى بعض الروايات ثمانمائة وضربت أعناقهم جميعا، ولم تقتل إلا امرأة واحدة قال ابن هشام هي التي طرحت الرحى أمام خلاد بن سويد فقتلته[1] وهو الشهيد الوحيد يوم قريظة، وقسم الرسول ﷺ أموالهم ونساءهم وأبناءهم على المسلمين واخرج منها الخمس، وأعطى ثلاثة أسهم سهمان للفرس وسهم للفارس وللراجل سهم وكانت الخيول ستة وثلاثين.

وكانت إحدى سباياهم ريحانه بنت عمرو بن خفافة وكانت ملك يمين الرسول ﷺ، واعتزلها لامتناعها عن الإسلام ثم أسلمت. ولما انقضى شان بنى قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فتوفى شهيدا رضي الله عنه.

من عبر هذه الغزوة

1- لا مهادنة مع الغادرين الناكثين عهودهم ومواثيقهم.

(1) ابن هشام ج2 ص177.

2- اليهود اشد الناس عداوة للمؤمنين إلى يوم القيامة.

3- جواز الاجتهاد، ما دام لكل مجتهد وجه سائغ مقبول حيث لم يلم الرسول ﷺ اللذين أخروا صلاة العصر ذلك اليوم- واخذوا بظاهر النص.

4- تقتل المرأة بالرجل حيث قتل اليهودية بالرجل المسلم الذي قتلته بأن طرحت عليه الرحى.

غزوة بنى لحيان ربيع الأول سنة ست:

بلغ الحزن برسول الله ﷺ كل مبلغ على شهداء بئر معونة وهم عشرة من صحابته الذين أرسلهم ليقرئوا القرآن وذلك في سنة أربع وغدر بهم بنو لحيان فقتلوهم فأراد ﷺ أن يثار لعاصم بن ثابت وأصحابه من قتلى الرجيع فتوجه في مائتى رجل منهم عشرون فارسا واظهر أنه يريد الشام ليصيب من بنى لحيان غرة وأسرع السير حتى وصل منازل بنى لحيان[1]. ووجد أن القوم قد تفرقوا وتحصنوا برؤوس الجبال، وبقى يوماً أو يومين يبعث السرايا في كل ناحية فلم يعثروا على أحد. وعندما مر على مقتل أصحابه دعا لهم وترحم عليهم.

وأرسل عشرة فرسان من أصحابه حتى وصلوا كراع الغميم[2] لتسمع به قريش فيداخلها الرعب ثم رجع وهو يقول: آيبون تآئبون لربنا حامدون أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال[3] وبقى غائبا أربع عشرة ليلة.

غزوة ذي قرد أو غزوة الغابة ربيع الأول سنة ست

ذو قرد ماء على نحو بريد من المدينة (والبريد عشرون كيلو متراً تقريبا) مما يلي بلاد غطفان وكانت في ربيع الأول وفى البخاري أنها كانت قبل خيبر بثلاثة أيام وقبل الحديبية بعشرين يوما، وكثيرا ما تختلف المصادر في تحديد التواريخ. وسببها إغارة عيينة بن حصن على لقاح للرسول ﷺ في أربعين فارسا وكانت اللقاح بالغابة وعددها عشرون وفيها رجل من

(1) واد بين امج وعسفان.

(2) جبل جنوب عسفان بثمانيه اميال والميل كيلومتر وستمائة متر تقريبا.

(3) نو اليقين ص124 والرحيق المختوم ص295 ومحمد رسول الله ص303 وسيرة بن هشام ج2 ص205.

بنى غفار وامرأته فقتلوا الرجل، وحملوا المرأة معهم، إلا أنها أصابت منهم غفلة فخرجت على ناقة للرسول ﷺ، وأسرعت ليلا ونجت، ونذرت أنها لو وصلت سالمة لتنحرن الناقة

وأخبرت الرسول ﷺ بأنها نذرت لله تعالى أن تنحر الناقة إن نجاني الله عليها فقال: بئسما جزيتها إن حملك الله عليها، ونجاك أن تنحريها، إن لا نذر لأحد في معصية، ولا لأحد فيما لا يملك إنما هي ناقة من إبلي، أرجعي إلى أهلك على بركة الله. وركب الرسول ﷺ في خمسمائة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وخلف سعد بن عبادة في ثلاث مائة رجل يحرسون المدينة.

وأدركوا العدو فهزموه وقتلوا رؤساءه واستردوا اللقاح وقيل بعضها، وقتل من المسلمين شهيد واحد وأبلى سلمه بن الاكوع بلاء حسنا وكان راميا ماهرا، وقد أمره الرسول ﷺ بأن يناوشهم حتى يلحق به الجيش وكان عداء فإذا رماهم توجهوا له بالخيل فيهرب، فإذا دخلوا بعض المضائق رماهم من الجبل فاضطروا إلى إلقاء رماحهم وإبرادهم ليخففوا عن أنفسهم حتى لا يلحقهم الجيش وعندما لحق به الجيش طلب من الرسول ﷺ أن يلاحقهم فقال له (ملكت فاسجح) بمعنى قدرت فاعف ورجع الرسول ﷺ بعد خمس ليال[1].

ومن العبر:

1- لا نذر في معصية، ولا نذر في ما لا تملك وقد اخذ جمهور الفقهاء بهذا.

2- العفو عند المقدرة. من شيم الكرام، أراد الرسول ﷺ أن يغرس الفضيلة في نفوس أصحابه حتى في اشد المواقف، فقد بلغوا غايتهم واسترجعوا إبلهم وهيبتهم.

3- العبقرية العسكرية في الهاء العدو بالمناوشة لكسب الوقت

غزوة المريسيع: أو غزوة بني المصطلق شعبان سنة ست

المريسيع: ماء لبني خزاعة، وبنو المصطلق بطن من خزاعة.

وقد جمع الحارث بن أبي ضرار الخزاعي جموعاً لمحاربة النبي ﷺ فخرج إليه الرسول

(1) انظر المراجع السابقة وارى أن هذا النذر كان معروفا ومنه قول الشاعر مخاطبا ناقته: إذا أوصلتنى وبلغت أهلي: عرابه فاشرقي بدم الوتين.

ﷺ وخرج في هذه الغزوة عدد كبير من المنافقين وكان مع المسلمين ثلاثون فرساً، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة وقيل أبو ذر الغفاري. وخرجت معه أمهات المؤمنين عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، ودفع راية المهاجرين لأبي بكر وراية الأنصار لسعد بن عباده رضي الله عنه، وقتل الرسول ﷺ جاسوساً للمشركين. وقتل المسلمون عشرة من المشركين واسروا أكثر من سبعمائة بين رجال ونساء وأطفال وحازوا الأنعام والغنائم، ولم يقتل من المسلمين إلا هشام بن صبابة قتله أحد المسلمين خطأ. وكانت جويرية بنت الحارث ضمن السبى وكانت تحت مسافع بن صفوان فقتل في هذه الغزوة وكان اسمها بره كما تقول بعض المصادر في سبب تغيير اسمها واعتقها ﷺ وتزوجها فقال الصحابة لقومها هؤلاء أصهار رسول الله وأطلقوهم فدخلوا الإسلام وصاروا عونا للمسلمين فكان زواج الرسول ﷺ خيراً وبركة علي المسلمين.

المنافقون يتوعدون:

كان لعمر بن الخطاب أجير يسمى جهجاه بن سعيد من بنى غفار اختصم مع سنان الجهنى حليف بني عوف بن الخزرج على الماء (المريسيع) فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وعنده نفر من قومه فيهم زيد بن ارقم غلام صغير فقال ابن أبي: أقد فعلوها، لقد نافرونا وكاثرونا، في بلادنا، والله ما عدونا وجلابيب قريش ما قال القائل: سمن كلبك يا كلك «أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». وسمع زيد بن ارقم ما قال ابن أبي وقد جاراه قومه فيما قال فاخبر الرسول ﷺ بذلك وكان معه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر يا رسول الله: مر به عباده بن بشر بن وقش فليقتله فقال ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا ولكن أذن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن الرسول يرتحل فيها. فعلم ابن أبي أن الرسول ﷺ قد بلغه الخبر فذهب إليه وحلف بالله ما قلت ولا تكلمت[1] فقال بعض الأنصار يا رسول الله: عسي أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، والتقى

(1) انظر: أسباب النزول ص246 الآيه 74 من سورة التوبة: {يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمه الكفر وكفروا بعد إسلامهم}.

الرسول ﷺ بأسيد بن خضير فاستغرب الرحيل في غير وقته وسأل فقال له الرسول ما قال ابن أبي فقال فأنت يا رسول الله تخرجه أن شئت أنت العزيز وهو الذليل، ولكن أرفق به يا رسول الله فقد جئت إلى المدينة وقومه ينضمون له الخرز ليتوجوه ملكاً فهو يرى انك قد سلبته ملكه.

وسمع عبد الله بن عبد الله بن أبي بما قال أبوه فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: انه قد بلغني انك تريد قتل عبد الله بن أبي فإن كنت فاعلا فمرني به، والله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بأبيه مني وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله فلا تطاوعني نفسي أن انظر إلى قاتل أبي فاقتله فاقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار. فقال ﷺ بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا وجاء بن صبابة من مكة مظهرا الإسلام فأعطاه الرسول ﷺ دية أخيه هشام الذي قتل خطأ فاخذ الدية وأقام مدة ثم عدا علي قاتل، أخيه فقتله ورجع إلى مكة مرتداً فأهدر الرسول ﷺ يوم فتح مكة. ونزلت في هذه الغزوة آية التيمم وشاع فيها حديث الإفك الذي كذب الله مروجيه في سورة النور. وجلد الرسول ﷺ كل من خاض في الحديث الكاذب ثمانين جلدة وهي حد القذف.

ما نزل من القرآن في هذه الغزوة:

أخرج البخاري عن زيد بن أرقم قال: سمعت عبد الله بن أبي يقول لأصحابه لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا فلئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فذكر ذلك عمير للنبي ﷺ فدعاني النبي ﷺ فحدثته فأرسل الرسول إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا فكذبني وصدقه فأصابني شيء لم يصبني شيء قط مثله، فجلست في البيت فقال عمر ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك، فانزل الله {إذا جاءك المنافقون}[1] فبعث إلى رسول الله فقرأها ثم قال: إن الله قد صدقك. وله طرق كثيرة عن زيد، وفي بعضها إن ذلك في غزوة تبوك وان نزول السورة ليلاً[2].

(1) المنافقون الآية 1.

(2) أسباب النزول ص439. والآيتان 7، 8 من سورة المنافقون.

وفي أسباب نزول قوله تعالى {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم} أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فايتهن خرج اسمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجت، وذلك بعد ما انزل الحجاب فانا أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوة وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمت فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحيل، فلمست صدري فإذا عقد من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه واقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي، فحملوا هودجي على بعيري، الذي كنت اركب وهم يحسبون إني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفا فالم يثقلن، ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي لما سار الجيش فجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، فظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل قد عرس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني، حين رآني قبل أن يضرب على الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه {إنا لله وإنا إليه راجعون} حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، فوالله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة، غير استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطئ علي يدها، فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحو الظهيرة، فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمت المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك حتى خرجت بعد ما نقهت، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها، بئس ما قلت، تسبين رجلا شهد بدرا؟ قالت أي هنتاه الم تسمعي ما قال؟ قلت وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضا إلى مرضي، فلما دخل على رسول الله ﷺ قلت: أتأذن لي أن أتى أبوي؟. وأنا أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أماه ما يتحدث الناس؟ قالت: أي بنية هوني عليك فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قلت: سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا اكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامه فأشار عليه بالذي يعلم من براءة أهله فقال: يا رسول الله هم اهلك ولا نعلم إلا خيرا وأما علي فقال: لن يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وان تسأل الجارية تصدقك، فدعا بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ قالت: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط اغمصن عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام في عجين أهلها فتاتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي الا خيرا، قالت وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ثم بكيت تلك الليلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يضنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا ابكي استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، ثم دخل رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء فتشهد ثم قال: أما بعد عائشة فإنه قد بلغني كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وان كنت قد ألممت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه فلما قضي مقالته قلت لأبي أجب عني رسول الله ﷺ فقال: والله ما أدري ما أقول فقلت لأمي أجيبي رسول الله ﷺ فقالت: والله ما أدري ما أقول. فقلت وأنا جارية حديثة السن: والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم إني بريئة لا تصدقوني وفي رواية ولئن اعترفت لكم بأمر الله يعلم إني منه بريئة لتصدقني، إني والله لا أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف يعقوب عليه السلام «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء فلما سرى عنه كان أول كلمة تكلم بها انه قال: ابشري يا عائشة، أما الله فقد برأك فقالت لي أمي قومي إليه فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله وهو الذي انزل براءتي وأنزل الله {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم} عشر آيات[1].

(1) النور الآيات 11 / 21 وأسباب النزول ص314.

وكان أبو بكر ﷺ ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره فقال: والله لا انفق عليه شيئا بعد الذي قال فانزل الله {ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم}[1] فرجع له أبو بكر ما كان يعطيه من نفقة وقال بلى نحب أن يغفر لنا وروي البخاري من طريق عمرو بن الحارث عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة قالت:

سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله ﷺ ونزل فثنى رأسه في حجري راقداً، واقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة قال: حسبت الناس في قلادة؟ ثم إن النبي استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد فنزلت {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وان كنتم جنباً فاطهروا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون}[2] فقال اسيد بن حضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر[3].

ويؤخذ من هذه الغزوة:

1- يرد الله كيد المنافقين، والنفاق علامة الجبن فصاحبه لا يقوى على المواجهة فيظهر خلاف ما يبطن وهو داء خطير لأنه مستور

2- إقامة حد القذف

3- لا نذر في معصية فمن نذر في معصية فلا شيء عليه ولا نذر فيما لا يملك الإنسان

4- رحمة من الله بعباده وتيسيرا عليهم انزل آية التيمم للمرضى والمسافرين ومن عدم الماء.

(1) النور الآية 22 والمصدر السابق والصفحة.

(2) المائده الآية 6.

(3) أسباب النزول ص172.

صلح الحديبية وبيعة الرضوان ذو القعدة سنة ست:

الحديبية اسم بئر بينها وبين مكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل بعضها في الحلال وبعضها في الحرام[1].

وقد اشتاق الرسول ﷺ إلى زيارة البيت بعد ست سنوات وقد رأى في منامه انه دخل البيت وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين.

وخرج معه عدد في بعض الروايات سبعمائة وفي بعضها من ألف وأربعمائة إلى ألف وستمائة. ولم يحمل سلاحاً لأنه خرج معتمراً. وسمع به المشركون فصمموا على منعه وقد لقيه بشر بن سفيان الكعبي واخبره بذلك وهو بعسفان[2]. وطلب خبيراً يذهب به من طرق بعيدة عن تجمع قريش بذى طوى والخيل معسكرة في كراع الغميم[3] فتقدم حمزه بن عمرو السلمي فسلك بهم طريقا وعرا وخرجوا منه بعد أن شق عليهم ووصلوا إلى طريق سهلة عند منقطع الوادي فقال لهم الرسول ﷺ: قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه فقالوا ذلك فقال والله إنها للحطة التي عرضت علي بني إسرائيل فلم يقولوها.

ثم أمرهم الرسول ﷺ بأن يسلكوا ذات اليمين إلى مهبط الحديبية من أسفل ونزلوا الوادي وما به ماء فاخرج سهما من كنانته وأعطاه رجلا من أصحابه فغرزه في جوف قليب ففاض الماء حتى شربوا وشربت الإبل وفى رواية البخاري انه دعا بإناء فمضمض ودعا فيه ثم صبه في القليب وبعد ساعة فاض الماء فشربوا حتى الري وفى رواية ثالثة أن بين يديه ﷺ ركوة[4] يتوضأ منها فقال الناس ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في ركوتك فوضع يده في الركوة وأخذ الماء يفور من بين أصابعه كالعيون فشربوا جميعاً وقال ابن حبان هما قصتان كل واحدة على حدة يعني قصة البئر وقصة الركوة

(1) محمد رسول الله ص314.

(2) عسفان بين الجحفه ومكه وهي من مكة على مرحلتين وهى حد تهامه.

(3) موضع قريب من مكة.

(4) ركوه: دلو صغير.

وأتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من قومه فاخبره ﷺ بأنه إنما جاء زائرا لا محارباً ولما رجع إلى قريش اعترضوا على الزيارة أيضاً وتوالت الرسل من قريش إلى الرسول ﷺ وكلهم ينقلون إليه التصميم على المنع وأخرهم عروة بن مسعود الثقفي الذي رجع إلى قريش وقد بهره ما رأى من حب الصحابة فقال لقريش: «أي قوم: فو الله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله ما يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يتقاتلون علي وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، إجلالاً وتوقيراً، وما يمدون النظر إليه تعظيماً له، وانه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ولقد رأيت قوماً لا يسلمون لشيء ابدا فروا رأيكم» .

وقال: إني أخاف ألا تنتصروا عليه. فلم يسمعوا له.

وأرسل الرسول ﷺ خراش بن أمية ليبلغ قريشاً ما جاء الرسول من أجله وهو زيارة البيت فعقروا الجمل وأرادوا قتل خراش فمنعه الأحابيش ورجع ماشياً

وبعثت قريش أربعين أو خمسين رجلاً ليصيبوا أصحابه فاخذوا أخذا وعفا عنهم[1].

وفي أسباب النزول للسيوطي أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً في السلاح من جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله ﷺ فأخذوا فاعتقهم فانزل الله تعالى {وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا}[2] واخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قال: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها[3].

ثم عرض رسول الله ﷺ على عمر أن يذهب إلى قريش يبلغهم رغبته فاعتذر لأنه ليس

(1) محمد رسول الله ص320

(2) الفتح الآية 24 وأسباب النزول 383.

(3) المصدر السابق والصفحة.

له من يحميه من بني عدىٰ وقد كانت فيه غلظة علىٰ قريش ودله علىٰ عثمان بن عفان فقبل لأنه كان غائباً عن مكة – وفىٰ هجرة الحبشة وليس له أعداء بمكة وهو من بني أمية وهم سادة.

وعندما خرج عثمان إلىٰ مكة لقيه إبان بن سعيد بن العاص[1] وأجاره فبلغ رسالة الرسول ﷺ لأبي سفيان وغيره من سادة قريش وقالوا له إذا أردت أن تطوف بالبيت إذنا لك فقال: ما كنت لأفعل حتىٰ يطوف به رسول الله ﷺ.

وتأخر عثمان ومعه عشرة من الصحابة ثلاثة أيام وقيل إن عثمان ومن معه تأخروا لزيارة أهلهم وقيل إن قريشاً احتبستهم. وشاع في المسلمين أن عثمان قتل فقال الرسول ﷺ لا نبرح حتىٰ نناجز القوم أي نقاتلهم.

بيعة الرضوان:

دعا الرسول ﷺ إلىٰ البيعة وأمر عمر بأن ينادىٰ الناس إلىٰ البيعة فتمت تحت شجرة طلح[2] فبايعه المسلمون علىٰ عدم الفرار، وإنه إما الفتح وإما الشهادة وفىٰ رواية بايعناه علىٰ الموت وكلها عن سلمة بن الأكوع. وبايع الرسول ﷺ عن عثمان علي تقدير انه حي فوضع يده اليمني علىٰ اليسرىٰ وقال: اللهم هذه عن عثمان انه في حاجتك وحاجة رسولك وفي ذلك إشارة منه إلىٰ انه لم يقتل ولكنه جرياً علىٰ ظاهر الإشاعة وتثبيتاً للمسلمين وقد بايع عثمان بعد رجوعه اليهم وكان عدد الذين بايعوا ألفاً وأربعمائة، وانزل الله في ذلك قوله تعالىٰ {لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا ومغانم كثيرة ياخذونها}.

ولما سمعت قريش بهذه البيعة خافوا لما رأوا من تصميم المسلمين وأشار بعضهم علىٰ بعض بأن يصالحوا علىٰ أن يعود العام القابل ويقيم ثلاثا وليس معه سلاح إلا سلاح الراكب: السيوف في القرب[3] والقوس.

---

(1) هو ابن عم عثمان وقد اسلم فيما بعد.

(2) أمر عمر بقطعها لما اخذ الناس يزورونها ويطوفون بها مخافة البدعه وان تعبد كالصنم. وهو من باب سد الذرائع.

(3) القرب: جمع قراب وهو جراب السيف

الصلح:

المسلمون: وهم طرف يمثلهم الرسول ﷺ.

المشركون: وهم طرف يمثلهم سهيل بن عمرو[1].

ولما اتفقوا على نبذ القتال لم يبق إلا كتابة الصلح. وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال بلى قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال بلى. قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال بلى. قال: فعلام نعطى الدنية[2] في ديننا؟

فقال أبو بكر، ألزم غرزه أي قوله وفعله فإني اشهد أنه رسول الله ﷺ.

قال عمر: وأنا اشهد انه رسول الله ﷺ

ثم أتى عمر الرسول ﷺ وقال له ما قال لأبي بكر فقال له ﷺ: إنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني.

فكان عمر يقول: مازلت أتصدق وأصوم وأصلى واعتق، من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت خيراً وموقف عمر ليس إلا حرصاً على الإسلام وعزته وعزة المسلمين. وقد قدر الرسول ﷺ هذا الموقف، وإلا لأصاب عمر عذاب اليم. والرسول ﷺ يتصرف بوحي إلهي. وهذا ما جعل أبا بكر يفوض الأمر ويقول ألزم غرزه، ولا تخالف ما قال، وهذا ما جعل عمر يستغفر. وإنما الأعمال بالنيات.

ودعا الرسول ﷺ علي بن أبي طالب لكتابة الصلح واظهر فيه ﷺ مرونة وتحملا وصبراً لا يبلغ مداه أحد. فقد اعترض سهيل على لفظ الرحمن الرحيم وقال اكتبوا باسمك اللهم واعترض على عبارة رسول الله قائلاً لو شهدت انك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدك عن البيت ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال ﷺ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، وعارض كثير من المسلمين في محو كلمة رسول الله.

---

(1) أسلم فيما بعد.

(2) الدنية : الخصلة المذمومة.

ولا يضر الرسول ﷺ ألا يشهد سهيل بن عمرو أو غيره بأنه رسول الله فهو رسول الله حقاً وان لم يشهد به كافر أو منافق. ولكن تحمل هذا الجدل والمكابرة يحتاج إلى صبر، أو كما نقول بلسان اليوم إلى دبلوماسية نادرة.

وكان من شروط الصلح:

1- وضع الحرب عن الناس عشر سنين
2- من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه.
3- من جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه
4- وان العين مكفوفة إشارة إلى ترك المؤاخذة بما بينهم من حروب وعداوات
5- لا إسلال ولا إغلال: أي لا سرقة ولا خيانة.
6- من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل ومن شاء الدخول في عقد قريش وعهدهم دخل.

وقد ترتب على هذا الصلح فوائد عظيمة ونتائج باهرة سأشير إليها في فتح مكة.

وفي أوائل سنة سبع بعد هدنة الصلح بقليل اسلم: عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة[1] فقال ﷺ إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها.

وكان خالداً قد ندم على ما فرط في جنب الله ولما بذل من جهد وحنكة في مناصرة المشركين، وكاد ييأس من رحمة الله. فقال له ﷺ «الإسلام يجب ما قبله» أي يقطع. وقد كانت له مواقف بطولية عظيمة. في الغزوات والفتوح كما كانت لعمرو بن العاص وغيرهما من القادة العظام.

غزوة خيبر محرم سه سبع

ومعنى خيبر باللغة العربية: الحصن أو القلعة وهي واحة كبيرة على بعد ثمانية برد من

(1) الرحيق المختوم ص318.

المدينة أي ستة وتسعون ميلا وهو ما يساوي مائة وخمسين كيلو مترا تقريبا من المدينة جهة الشام[1].

وكل سكانها يهود ولكنهم غير متجمعين فهم متفرقون في الوديان المجاورة وبها حصون ومزارع ونخيل، وكانت مركزا لدسائس اليهود.

وحصونها الأساسية ثلاثة وكل حصن مؤلف من عدة حصون:

1- حصون النطاة وهي أربعة: الناعم، الصعب، الكتيبة، بقلة.

2- حصون الشق: اثنان: حصن أبي، وحصن البري.

3- حصون الكتيبة وهي ثلاثة: حصن القموص، الوطيح، سلالم.

ولما رجع الرسول ﷺ من الحديبية أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم ثم خرج إلى خيبر في ألف وستمائة رجل منهم مائتا فارس وقد كثر عدد الخيول لحث الرسول ﷺ على الاهتمام بها.

ولما اشرف الرسول ﷺ على خيبر قال لأصحابه قفوا ثم قال: «اللهم رب السماوات وما أظللن ورب الأرضين وما اقللن ورب الشياطين وما اضللن، ورب الرياح وما ذرين، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا باسم الله» وسار الجيش أربعة أيام إلى أن وصلوا خيبر.

ودفع الرسول ﷺ راية العقاب إلى الحباب بن المنذر ودفع راية لسعد بن عبادة، ونزل بواد يقال له الرجيع بينهم وبين غطفان وكان أهل غطفان قد اتفقوا على التحالف مع اليهود ضد المسلمين ولكنهم سمعوا حسا خلفهم فظنوا أن المسلمين قد هجموا على ذراريهم فتراجعوا ونقضوا الحلف، إلا أن المسلمين بنزولهم في الوادي بين غطفان وخيبر كانوا قد فعلوا ذلك على سبيل الاحتياط لئلا يمدوهم.

ولما أصبح الصباح خرج اليهود إلى مزارعهم فرجع اللذين خرجوا يصيحون: محمد والخميس أي الجيش الكبير. وكان أهل خيبر عشرة آلاف مقاتل.

---

(1) الميل 600 / 1 كم.

وتحصن اليهود في حصن الكتيبة فقد جعلوا فيه أموالهم وعيالهم، وجمعوا المقاتلين في حصن النطاة.

ونزل المسلمون قريبا من حصن النطاة فقال الحباب بن المنذر يا رسول الله: إن أهل النطاة رماة مهرة والحصن مرتفع فأرى أن نبتعد حتى لا يصيبنا رماتهم، ولا نأمن منهم إذا تستروا بنخيلهم ورمونا فوافقه الرسول ﷺ ونزل بعيدا من الحصن وأمر بقطع النخيل فقطع منه أربعمائة نخلة ثم نهاهم عن القطع. وتجدر الإشارة إلى أن الحباب بن المنذر هو الذي أشار على الرسول يوم بدر بتغيير منزله ووافقه الرسول ﷺ كما وافقه هذه المرة لصواب رأيه.

وبنى ﷺ مسجدا في المكان الذي تحول إليه فصلى فيه مدة إقامته بخيبر واستمر القتال طوال اليوم الأول وقتل محمود بن مسلمة حيث ألقى عليه مرحب اليهودي رحى من أعلى الحصن فوقع شهيدا.

وأول حصن فتحه حصن ناعم وهو الذي ألقيت منه الرحى على ابن مسلمة وحصن القموص الذي يقيم فيه ابن أبي الحقيق وفيه كانت صفية بنت حيي بن اخطب وكانت تحت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ومعها بنتا عمها ونسوة كثيرات، وهي التي اختارها الرسول ﷺ وأكرمها الله بأن صارت زوجا للرسول وإما للمؤمنين[1]، وتم فتح حصونهم بعد ذلك حصنا حصنا حتى كان آخرها

وقد مر بلال رضي الله عنه بصفية وامرأة معها على قتلى اليهود فصكت المرأة اليهودية وجهها، وحثت التراب على وجهها فلما رآها الرسول ﷺ قال لبلال: أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟

الوطيح والسلالم وكان اليهود يحاربون أمام حصونهم لأنهم يخشون الحرب المكشوفة في الميدان فإذا انهزموا رجعوا لحصونهم وأغلقوها عليهم، وقد فتح الوطيح والسلالم فقط بدون قتال بعد حصارها أربعة عشر يوما ثم طلبوا الجلاء عنهما.

---

(1) اخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: طعن اناس على النبي ﷺ حين اتخذ صفية فأنزل الله تعالى {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا} الأحزاب الآية 57 وقيل نزلت في عبد الله بن أبي في حديث الافك أسباب النزول ص348.

وبلغ الرسول ﷺ أن اليهود يخرجون من حصن النطاة ليلا إلى حصن الشق يجعلون فيه نساءهم وأولادهم وان بحصن الصعب من حصون النطاة دهليزا مملوء بالسلاح.

وأرسل أبا بكر وعمر ولم يتمكنا من افتتاحه كما أرسل غيرهم ثم قال لمحمد بن مسلمة لأعطين الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه فيمكنه من قاتل أخيك.

ودفع الراية إلى على بن أبي طالب وبعثه وكان ارمد يومها فمسح الرسول ﷺ عينيه وشفى ولم يرمد بعدها إلى أن توفى كرم الله وجهه. وقال له الرسول: أنفذ على مهلك حتى تنزل ساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام فإن لم يطيعوا لك بذلك فقاتلهم فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم.

وركز على كرم الله وجهه الراية تحت الحصن.

وصف القتال أمام حصن الناعم:

أول من خرج من حصن الناعم كان الحارث وكان قويا فقتله على وانهزم اليهود إلى الحصن ثم خرج أخوه مرحب وكان من فرسان اليهود فبارزه على وتبادلا ضربات بالسيف فسقط ترس على فتناول باب الحصن وضرب مرحبا فقتله، وجاء ثمانية من الرجال ولم يستطيعوا رفع الباب من مكانه[1] وروى ابن إسحاق عن جابر ابن محمد بن مسلمة هو الذي قتل «مرحب» ثارا لأخيه محمود بن مسلمة[2].

ثم خرج ياسر اخو مرحب أيضاً فقتله الزبير بن العوام. وبعدها قال له الرسول ﷺ: فداك عم وخال لكل بنى حواري وحواري الزبير[3].

وقسم الرسول الغنائم بعد تخميسها ووجد المسلمون في حصتي الوطيح والسلالم مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة قوس عربية مع ما وجدوا في حصن الصعب من

(1) انظر سيرة ابن هشام ج2ص251.

(2) انظر سيرة ابن هشام ج2 ص250 ومحمد رسول الله ص349.

(3) الحوارى: الناصر المصدر السابق والصفحة.

شعير وتمر وودك «سمن» وزيت وشحم ومتاع وماشية، ولم يسمح لهم إلا بالخروج بثوب واحد فقط وصحائفهم من التوراة.

ولم يعط الرسول ﷺ شيئا من الغنائم إلا لمن خرج معه باستثناء الذين عادوا من الحبشة وهم ستة عشر رجلا على رأسهم جعفر بن عبد المطلب حيث قال ﷺ «ما أدري بأيهما اسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»[1].

واستشهد من المسلمين 15 رجلاً وفي رواية عشرون وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون.

مصالحة أهل فدك:

لما سمع أهل فدك بما نال اليهود في خيبر أرسل أهل فدك وهي قرية قريبة من خيبر يعرضون على الرسول ﷺ أن يصالحهم على النصف من أموالهم ومزروعاتهم لعلمهم بالأرض وفلاحتها فصالحهم على ذلك فكانت خيبر فيئابين المسلمين وفدك خالصة للرسول ﷺ ولم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب وبقيت للرسول ﷺ يصرف منها على المساكين وفقراء بني هاشم حتى لحق بالرفيق الأعلى وطلبت فاطمة رضي الله عنها من أبي بكر رضي الله عنه إعطاءها أو نصفها لها فقال لها أبو بكر لا. وروى لها الحديث نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة للمسلمين.

خطبة رويفع بن ثابت الأنصاري[2]

روى ابن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي مرزوقه عن حنش الصنعاني قال: غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصاري المغرب ففتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة[3] فقام فينا خطيبا فقال: قام فينا رسول الله ﷺ يوم خيبر فقال: لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الأخر أن يسقي ماءه زرع غيره يعني إتيان الحبالى من السبايا.

---

(1) ابن هشام ج2 270.

(2) صاحب المقام المعروف بالبيضاء في مدخلها الغربي.

(3) جربه مدينة في تونس والمغرب تطلق على الشمال الافريقي من ليبيا غربا.

ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى يقسم، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها أي أهزلها ردها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا اخلقه (إبلاه) رده فيه.

النهي عن الربا واكل لحوم الحمر الأهلية:

نهى يوم خيبر عن بيع أو ابتياع تبر الذهب بالذهب وتبر الفضة بالفضة كما نهى ﷺ عن أكل لحوم الحمير وكان الصحابة يطبخون لحمها فكفوا القدور فأمرهم بغسلها. وعن جابر إذن لهم في أكل لحوم الخيل[1].

قضاء الصلاة:

روى ابن إسحاق عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قال: لما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر فكان ببعض الطريق قال من آخر الليل: من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟ فقال بلال: أنا يا رسول الله أحفظه عليك فنام ونام الناس، وقام بلال فصلى ما شاء له الله ثم اسند ظهره إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه فغلبته عينه فنام فلم يوقظه إلا مس الشمس، وكان الرسول ﷺ أول أصحابه هب فقال: ما صنعت بنا يا بلال؟ قال: يا رسول الله اخذ بنفسي الذي اخذ بنفسك قال: صدقت، ثم اقتاد رسول الله ﷺ بعيره غير كثير ثم اناخ فتوضأ، وتوضأ الناس ثم أمر بلالا فأقام الصلاة فصلى بهم ثم اقبل عليهم فقال: إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله تعالى يقول {وأقم الصلاة لذكرى}[2].

العبر في هذه الغزوة:

1- من أدب الرسول ﷺ نهيه بلالاً عن المرور بالنساء اليهوديات على قتلى اليهود قائلاً:

(1) الحديث اخرجة ابن عمر واخرجة الشيخان: زاد المسلم. ج5ص491.

(2) طه من الآية 14.

أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما[1]؟ وكانت لفتة إنسانية مع اشد الأعداء.

2- في هذه الغزوة تشريعات: تحريم الربا، تحريم لحم الحمر الأهلية [2]، تحريم أكل ذي كل ناب من السباع، وتحريم إتيان الحبالى، ووجوب العدة وتحريم بيع الغنائم أو استعمالها، قضاء الصلاة وهى رحمة من الله بعباده.

3- تم القضاء نهائياً على اليهود ومكرهم بعد أن ظنوا إنهم ما نعتهم حصونهم من الله.

غزوة وادي القرى:

بعد فراغ الرسول ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى وبدأ اليهود الرمي فقتل رجل وقال المسلمون هنيئاً له الجنة فقال ﷺ كلا والذي نفسي بيده أن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا - فلما سمعوا بذلك جاء رجل بشراك أو شراكين فقال الرسول ﷺ شراك من نار أو شراكان من نار[3]، ودعاهم ﷺ إلى الإسلام فأبوا وبرز رجل من اليهود فقتله الزبير بن العوام وبرز آخر فقتله على بن أبي طالب حتى قتل منهم أحد عشر وكل ما قتل منهم رجل دعوا إلى الإسلام وقاتلهم حتى المساء وعند الصباح تم له الفتح عنوة وغنم أموالهم. وقسم الرسول ﷺ الغنائم وأبقى الأرض بيد اليهود بنخيلها، وعاملهم عليها كما عامل أهل خيبر بالشطر «النصف»

ومن العبر:

1- حرمة اخذ شيء من الغنائم قبل القسم وان قل فهو الغلول المحرم.

2- اخذ الفقهاء من معاملة الرسول لأهل خيبر جواز المزارعة.

والمساقاة بشروط كثيرة تضمنتها كتب الفقه.

---

(1) ابن هشام ج2 252.

(2) حرم مالك اكل لحوم الخيل واجازها الشافعى واحمد بن حنبل وكره أبو حنيفة اكلها كراهه تحريم وكراهه تنزيه والاول اصح.

(3) الشراك: السير يدخل بين الأصابع في الرجل. فما بالك بغيره.

عمرة القضاء ذو القعدة سنة سبع:

بعد رجوع الرسول ﷺ من خيبر أقام بالمدينة ثمانية أشهر من ربيع الأول إلى آخر شوال يبعث فيها السرايا ثم خرج في ذي القعدة معتمراً على رأس عام من الشهر الذي صده فيه المشركون.

وتسمى هذه العمرة: عمرة القصاص؛ لأنه اقتص منهم فرجع في الشهر الذي صدوه فيه، كما تسمى أيضاً: القضاء، والقضية، والصلح.

وقد اخرج الواحدي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: انزل الله تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين}[1] في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما صد عن البيت ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه القابل فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا ألا تفي قريش بذلك. وان يصدوهم عن المسجد الحرام، ويقاتلوهم وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام فانزل الله الآية.

وخرج النبي ﷺ وأصحابه معتمرين في ذي القعدة وأقام في مكة ثلاث ليال، وكان المشركون فخروا عليه حين ردوه فأقصه الله منهم فادخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردوه فيه فانزل «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص»[2] وسميت هذه العمرة عمرة القصاص وخرج معه كل من خرج في العام السابق إلا من مات أو استشهد، وتحدثت قريش أن محمدا في عسرة وجهد ومشقة.

وأحرم من ذي الحليفة ولبى ولبى المسلمون معه، وساق ستين بدنه، وخرج مستعدا بالسلاح خشية الغدر من قريش، فلما بلغ يأجج وضع السلاح كله وخلف عليه أوس بن خولي الأنصاري في مائتي رجل، ودخل مكة بسلاح الراكب والسيوف في القرب تطبيقا لاتفاق الصلح وخرج المشركون إلى جبل قعيقعان الذي في شمال الكعبة، وفي رواية إنهم اصطفوا عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه.

---

(1) البقرة الآية 190 وأسباب النزول ص62 .

(2) البقرة الآية 194 .

وحتى يكذب الرسول ﷺ قريشاً ويظهر لهم انه ليس في شدة أو جهد أو مشقة أمر أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وان يمشوا ما بين الركنين كما أمرهم بالاضطباع بأن يكشفوا المناكب اليمنى ويضعوا طرفي الرداء على اليسرى، حتى تظهر قوتهم، وتفشل إشاعة قريش بأن المسلمين قد أنهكتهم حمى يثرب. فصار ذلك سنة وقد فعله في حجة الوداع.

وطاف، وطاف المسلمون معه، ولما فرغ من الطواف سعا بين الصفا والمروة، وبعد السعي وقف الهدى عند المروة وقال: هذا منحر، وكل فجاج مكة منحر، فنحر عند المروة وحلق هناك وتبعه المسلمون ثم أرسل إلى ياجج من يبقى على السلاح حتى اقبل الذين كانوا عليه فأتموا مناسك العمرة.

وأقام ﷺ بمكة ثلاثة أيام ثم خرج تنفيذاً لنصوص الصلح.

وفي هذه العمرة تزوج بميمونة بنت الحارث وذلك بسرف قريباً من مكة ولحقت به ابنة حمزه رضي الله عنه شهيد بدر واختصم فيها على وجعفر وزيد فقضى النبي ﷺ لجعفر، لأن خالتها كانت تحته، فكانت الحضانة بذلك للام أو أمها أو أختها.

وكان عبد الله بن أبي رواحة ينشد:

قد انزل الرحمن في تنزيله	::	في صحف تتلى على رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله	::	إني رأيت الحق في قبوله
بأن خير القتل في سبيله	::	اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن نصيله	::	ويذهل الخليل عن خليله
خلوا بنى الكفار عن سبيله	::	خلوا فكل الخير في رسوله
نحن قتلناكم على تاويله	::	كما قتلناكم على تنزيله

وقال عمر: يا ابن رواحه: بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله نقول الشعر؟فقال له ﷺ: خل عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضح النبل[1] وفي هذا دليل على جواز سماع الشعر بالمسجد إذا كان جادا.

(1) سيرة ابن هشام ج4 ص283 .

حملة مؤتة[1] الأولى جمادى الأولى سنة ثمان

وتسميها بعض المصادر غزوة وبعضها حملة، والذي اصطلح عليه أن الغزوة هي التي يحضرها الرسول ﷺ.

وقد أرسل الرسول ﷺ الحارث بن عمير الازدى إلى أمير بصرى فقتلوا رسول رسول الله ﷺ فجهز عليه السلام جيشا للقصاص ممن قتلوا الحارث، وكان عدد الجيش ثلاثة آلاف وشيعهم بقوله «اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالا في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم. ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا، ولا تقطعوا شجرا، ولا تهدموا بناء»

وأمر على الجيش زيد بن حارثة، وقال لهم إن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة.

وعندما وصلوا مؤتة مقتل الحارث بن عمير وجدوا الروم قد تجمعوا لهم في جمع كبير مع العرب المتنصرين، وتشاوروا أيرسلون في طلب المدد؟ أم يقدمون على الحرب؟ فقال عبد الله بن رواحه: يا قوم والله إن ما تكرهون هو ما خرجتم له، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل بكثرة ولا بقوة إنما نقاتل بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، وإنما هي إحدى الحسنيين إما الظهور وإما الشهادة وكان جيش الروم مائة وخمسين ألفا.

والتقى الجيشان فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فاستلم الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل، فاستلمها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل، واستشهدوا جميعاً.

وقال لهم عقبة بن عامر وقد هموا بالتقهقر بعد مقتل القادة الثلاثة: يقتل الرجل مقبلا ولا يقتل مدبراً، واتفقوا على تأمير خالد بن الوليد، ولما استلم الراية قاتل ذلك اليوم قتالاً شديداً.

وفى اليوم التالي غير ترتيب الجيش وتنظيمه وتقسيمه فجعل المقدمة ساقه والساق مقدمة والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة وأحدث جلبة وضوضاء وقد أثير الغبار من كل ناحية

(1) مؤته: قرية قريبة من الكرك وهى مشارف الشام.

فظن الروم إن مددا جاء للمسلمين، ووقع في قلوبهم الرعب ثم اخذ يتراجع حتى انحاز إلى مؤتة، واخذ يناوش الأعداء سبعة أيام حتى تم الانسحاب.

وأخبر الرسول ﷺ صحابته باستشهاد القادة الثلاثة رضي الله عنهم وأخبرهم أن الراية أخذها سيف من سيوف الله وهو خالد بن الوليد فسماه الرسول ﷺ سيف الله المسلول وإذا وضعنا في اعتبارنا الفارق العددي حيث إن كل مسلم يقابله خمسون من جيش الروم، وقد صبروا على قتالهم أياما والحقوا بهم عددا كبيرا من القتلى والجرحى، إذا وضعنا ذلك في الاعتبار فإن هذه المعركة تعتبر انتصارا حاسما وعظيما بث في قلوب الروم الرعب، وأعلا سمعة المسلمين، كما أن الانسحاب في تلك الظروف الصعبة، وما صاحبه من مناورات حافظت على أرواح المقاتلين يعتبر نصرا عسكريا، وهى خطة استفاد منها كبار القادة في الحروب الحديثة بعد أربعة عشر قرنا.

الفتح المبين فتح مكة رمضان سنة ثمان:

للحديث عن فتح مكة لابد من الرجوع إلى صلح الحديبية، حيث إن فتح مكة كان أثرا من آثاره ونتيجة من نتائجه.

وقد روى الواحدى وابن إسحاق عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نسكنا، فنحن بين الحزن والكآبة، انزل الله تعالى {إنا فتحنا لك فتحاً مبينا} فقال رسول الله ﷺ: لقد نزلت على آية أحب إليّ من الدنيا وما فيها، وفى رواية من أولها إلى أخرها، وفى رواية: لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس.

وعندما نزل قوله تعالى {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} قال الصحابة: هنيئا مريئا لك يا رسول الله. لقد بين الله لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فنزل: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ويكفر عنهم سيئاتهم، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما}.

وقد نزلت هذه السورة سورة الفتح سنة ست بعد الهجرة عندما انصرف النبي ﷺ من الحديبية وقبل غزوة خيبر.

ومكان نزولها: موضع يسمى كراع الغميم، وهو واد بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة، وعلى بعد ثلاثة أميال من عسفان وهو من ارض مكة. وقيل نزلت بضجنان وهو جبل قرب مكة، ونزلت ليلا فهي من القرآن الليلي.

وسميت سورة الفتح لأنها تضمنت البشارة بفتح مكة وهى بين السور المدنية وفقا للمصطلح المشهور في أن المدني ما نزل بعد الهجرة، ولو كان نزوله في مكان غير المدينة وهى السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب نزول السور في قول جابر بن زيد ﷺ حيث نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة التوبة ومن أغراضها: بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية وأنه نصر وفتح نزلت به السكينة في قلوب المسلمين، وأزال حزنهم عندما صدهم المشركون عن الاعتمار بالبيت في ذلك العام، وقد رأى المسلمون وقتها أنهم عادوا كالخائبين، فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم، وان دائرة السوء على المشركين والمنافقين، ووعدهم بالفتح المبين وبشرهم به قبل وقوعه وأكده بحرف التوكيد إن في مفتتح السورة إنا فتحنا لك فتحا مبينا. وهذا التوكيد ناشئ عن ما حل بالمسلمين من الكآبة من بعض شروط الصلح وإجابة المشركين إلى طلب الهدنة، أما الرسول ﷺ فقد كان واثقا من ذلك. وقال جمع من المفسرين المراد بالفتح هنا فتح مكة، وهو وعد بالفتح، وهو وان كان متعلقاً بالمستقبل إلا أن الله سبحانه عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه مثل قوله تعالى أتى أمر الله. لأن ما يعد الله به محقق قطعاً حيث لا يمنعه شيء، من تحقيق ما وعد به وهو القادر قال تعالى {ومن أوفى بعهده من الله}، وقال ﷻ {ومن اصدق من الله حديثا} وقال سبحانه {إن الله لا يخلف الميعاد} ونظرا لارتباط فتح مكة بصلح الحديبية كما سبقت الإشارة فقد روى عن جابر بن عبد الله ﷺ قوله ما كنا نعد فتح مكة إلا يوم الحديبية. يريد أنهم أيقنوا بفتح مكة بسبب هذا الوعد الإلهي.

وروى أيضاً عن البراء بن عازب ﷺ «تعدون انتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية» .

وقد قال الله في بيعة الرضوان {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا}[1].

(1) الفتح : الآية 18.

فكان ذلك الفتح الموعود به فتح مكة. وقد روى أن الرسول ﷺ قرأ يوم فتح مكة سورة الفتح.

وقد روى الزهري لقد كان يوم الحديبية أعظم الفتوح ذلك أن النبي ﷺ جاء إليها في ألف وأربعمائة رجل فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم في بعض وتفرقوا في البلاد فدخل بعضهم ارض بعض من أجل الأمن الذي ساد بينهم نتيجة الصلح، وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه، فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف. وفي رواية في اثني عشر ألفا. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنه لما نزلت {إنا فتحنا لك فتحاً مبينا} والنبي منصرف من الحديبية قال عمر أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم والذي نفسي بيده انه لفتح. وروى البيهقي عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما اقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعا فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ والله ما هذا بفتح: صددنا عن البيت وصد هدينا فبلغ ذلك الرسول فقال: بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتح: لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم الأمان، وقد كرهوا منكم ما كرهوا ولقد أظفركم الله عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح: أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا ادعوكم في أخراكم؟، أنسيتم يوم الأحزاب؟ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. فقال المسلمون صدق الله ورسوله، وهو أعظم الفتوح.

والله يا رسول الله ما فكرنا فيما ذكرت ولأنت اعلم بالله وبالأمور منا[1].

وهذا ما يجب أن يتصف به المؤمن فالخيرة فيما يختاره الله ورسوله حتى ولو كان ظاهره لا يتفق مع رغبة الإنسان، وصدق الله العظيم حيث يقول {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم}[2].

وقد آن لنا بعد هذه التوطئة أن نذكر الأسباب التي دعت الرسول ﷺ إلى عقد العزم على فتح مكة، وسنرجئ التأملات إلى حين الفراغ من الإلمام بأسباب عقد العزم على الغزوة،

(1) انظر: التحرير والتنوير ج26 ص141 وما بعدها الدار التونسية للنشر .

(2) الأحزاب: الأية 36.

وندع الواقدىٰ في مغازيه يشير إلىٰ هذا السبب مع تلخيص وتصرف يسير. ضمن عقد صلح الحديبية لأي من طرفي الصلح أن يتحالف مع من يشاء، علىٰ ألا يعتدي أي من طرفي الصلح، علىٰ حلفاء الطرف الآخر وبناء عليه فقد دخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ ودخلت بنو بكر في حلف قريش، وكانت بين القبيلتين ثارات في الجاهلية وديات وكانت خزاعة حلفاء لعبد المطلب بن هاشم، وكان رسول الله ﷺ عارفا بذلك، وقد جاءته خزاعة بكتاب عبد المطلب ونصه كالآتي: «باسمك اللهم، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة. إذ قدم عليه سراتهم وأهل الرأي: غائبهم مقر بما قضىٰ عليه شاهدهم إن بيننا وبينكم عهود الله وعقوده مالا ينسىٰ أبدا، ولا يأتي بلد أي خصومة شديدة - اليد واحدة، والنصر واحد ما اشرف، ثبير وثبت حراء - وهما جبلان بمكة كناية عن دوام الحلف - وما بل بحر صوفة، لا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجدداً أبدا ابد الدهر سر مدا » وقرأ الكتاب أبي بن كعب رضي الله عنه علىٰ الرسول ﷺ فقال «ما أعرفني بحلفكم، وانتم علىٰ ما أسلمتم عليه من الحلف، فكل حلف كان في الجاهلية لا يزيده الإسلام إلا شدة ولا حلف في الإسلام» كما جاءته قبيلة اسلم وهو بغدير الأشطاط - وهو موضع علىٰ ثلاثة أميال من عسفان مما يلي مكة - جاء بهم بريدة بن الحصيب فقال: يا رسول الله: هذه اسلم وهذه محالها، وقد هاجر إليك من هاجر منها. وبقىٰ قوم منهم في مواشيهم ومعاشهم، فقال رسوله ﷺ «انتم مهاجرون حيث كنتم» ودعا العلاء بن الحضرمي في أمره أن يكتب لهم كتابا، فكتب «هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لمن آمن منهم بالله وشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله فإنه آمن بأمان الله، وله ذمة الله وذمة رسوله، وإن أمرنا وأمركم واحد علىٰ ما دهمنا من الناس بظلم، اليد واحدة والنصر واحد، ولأهل باديتهم مثل ما لأهل قرارهم وهم مهاجرون حيث كانوا ».

ولما دخل شهر شعبان علىٰ رأس اثنين وعشرين شهرا من صلح الحديبية طلب بنو نفاثة من قبيلة بنىٰ بكر من حلفائهم من قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح علىٰ عدوهم من خزاعة حلفاء النبي، فأسرع أشراف قريش إلىٰ تلبية الطلب إلا بنو مدلج فلم ينقضوا العهد، ولم ينقضه أبو سفيان أيضاً، حيث لم تتم استشارته في رواية، أو انه رفض في رواية أخرىٰ.

وذهب بنو بكر حلفاء قريش ومعهم رجال من سادة قريش متنكرين منهم صفوان بن أمية، ومكرز بن حفص بن الأخيف، وحويطب بن عبد العزىٰ، وجلبوا معهم ارقاءهم، وكان علىٰ رأس بني بكر نوفل بن معاوية الدؤلىٰ، فبيتوا خزاعة ليلا نائمون آمنون، لم يعلموا

بما بيت القوم لهم، فلم يزالوا يقتلونهم، حتى انتهوا بهم إلى انصاب الحرم، فقال رجال من خزاعة، مخاطبين قائد قبيلة بنى بكر: الهك الهك: قد دخلت الحرم. فقال: لا إله لي اليوم وطلب من قبيلته أن يأخذوا ثأرهم من عدوهم قبيلة خزاعة.

ودخل الخزاعيون دار بديل بن ورقاء ودار رافع الخزاعى ودخل زعماء قريش في منازلهم يضنون ألا يعرفهم أحد، وألا يعلم محمد بما فعلوا وقتلوا من خزاعة حلفاء الرسول عشرين رجلا وفى رواية ثلاثة وعشرين وتركوا الباقين محصورين في دار بديل ورافع الخزاعيين وجثث القتلى تملأ المكان.

وعلمت قريش أن محمدا لن يتركهم، ولن يغفر لهم نقضهم الصلح فذهب الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة إلى أبي سفيان وطلبوا منه أن يصلح ما فسد، وان يذهب إلى محمد وان يطلب منه أن يزيد في مدة الصلح، ويجدد العهد قبل أن يعلم بما حدث فذهب أبو سفيان ولكن الرسول ﷺ وأبا بكر وعمر كلهم رفضوا مساعيه كما رفضه عثمان وعلى وفاطمة رضي الله عنهم.

وقدم ركب من خزاعة يخبرون الرسول ﷺ بما فعلته بهم بنو بكر من القتل فقال لهم الرسول فمن تهمتكم؟ وظنتكم؟ قالوا: بنو بكر فقال لهم: كلها؟ قالوا: لا. ولكن تهمتنا بنو نفاثة، ورأس القوم نوفل بن معاوية: فقال الرسول هذا بطن من بنى بكر، وأنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر ومخيرهم في خصال فبعث إليهم ضمره يخيرهم بين إحدى ثلاث خلال: إما أن يدفعوا دية من قتل من خزاعة حلفاء الرسول. وإما أن يبرأوا من حلف نفاثه. وإما أن ينبذ إليهم على سواء (أي يطرح إليهم عهدهم ويحاربهم على استواء في العلم بنبذه)[1].

فلما جاءهم مبعوث رسول الله ﷺ قال قرطه بن عبد عمرو الأعجمى من قريش إما أن نعطى دية القتلى من خزاعة ونتحملها عن نفاثة فإن هذه القبيلة فيها عرام أي شدة وشراسة فلا ندفع الديات عنهم حتى لا يبقى لنا سبد ولا لبد أي لا شعر ولا صوف. أما أن نبرأ من حلف نفاثة فلا لأنهم قبيلة تعظم البيت، وهم حلفاؤنا فلا نبرأ من حلفهم. ولكنا ننبذ إليه على سواء وندمت قريش على ما فعلت وعلى ردها رسول رسول الله، وطلبوا من أبي سفيان

(1) كلمات القرآن: الشيخ حسين مخلوف دار المعارف بمصر.

أن يصلح ما افسدوا فلم يستطع، وأيقنوا أن محمدا سيغزوهم وفي رواية أخرى أن قريشا تدارست ما خيرها فيه الرسول فاختلط عليهم الأمر بين من يريد دفع الدية وبين من يريد التبرأ من نفاثة وهو أهون الخيارات وبين من يريد نقض الصلح، واستقر الرأي على أن يجحدوا ما حدث وينكروا مناصرتهم لقبيلة نفاثة على خزاعة وطلبوا من أبي سفيان التوسط. ولكنه فشل[1]. وبناء على هذه الرواية يكون ذهاب أبي سفيان للنبي ﷺ بعد ما حدث لخزاعة، وليس قبل علمه بذلك. ولا يترتب على هذا الاختلاف أي أمر جوهري، لأن الرسول رفض وساطة أبي سفيان، وهو ما يرجحه ابن هشام[2].وما يؤخذ من رواية الطبراني.

التهيؤ للغزو وإخفاؤه:

روى الطبراني إن رسول الله ﷺ أمر عائشة رضي الله عنها – قبل أن يأتي إليه أمر نقض الميثاق بثلاثة أيام – أن تجهزه ولا يعلم أحد. ولا أضن أن الرسول يفعل هذا ألا بوحي من الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يمكن أبدا أن يبدأ بنقض الصلح وهو الحريص على الوفاء بعهوده ومواثيقه {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود}[3] .

ودخل أبو بكر رضي الله عنه على ابنته عائشة: فقال لها: يا بنية ما هذا الجهاز قالت: والله ما أدري. فقال والله ما هذا زمن غزو بني الأصفر فاين يريد رسول الله؟ قالت والله لا علم لي. وفي صباح اليوم الثالث جاء عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكبا ليخبر النبي ﷺ باعتداء بني نفاثة على خزاعة وقتل عدد من رجالهم. وبعد مجيء عمرو بن سالم جاء بديل – الذي احتمى الخزاعيون بداره كما سبق ثم جاء أبو سفيان وتأكد للناس خبر الاعتداء على قبيلة خزاعة.

وأعلم الرسول صحابته بأنه سائر إلى مكة وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها. وزيادة في الاحتياط والإخفاء والتعمية والتمويه بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي إلى بطن أضم فيما بين ذي خشب وذي

(1) المغازي للواقدي ص297 وما بعدها ج 4 .
(2) السيرة النبوية ص301 ج4 دار التراث
(3) المائدة الآية 1.

المروة على ثلاثة برد من المدينة أول شهر رمضان سنة ثمان، ليظن الناس أن النبي يتوجه إلى تلك الناحية، وتذهب بذلك الأخبار، ثم غيرت هذه السرية وجهتها عندما علمت أن الرسول متجه إلى مكة، فسرت إليه حتى لحقته وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم فيه بمسير الرسول إليهم ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً - أجرة - على أن تبلغه قريشا فجعلته في ضفائر رأسها، ثم خرجت به. ونزل الوحي من السماء يخبر الرسول ﷺ بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب والمقداد وفي رواية على والزبير بن العوام، وأمرهما باسترجاع الكتاب من المرأة قبل أن تصل قريشا، وعندما لحقا بالمرأة فتشاها فلم يجدا عندها شيئا، فقالا لها لابد من استخراج الكتاب؛ لأن رسول الله لا يكذب، وبعد إلحاحهما وإصرارهما نقضت ضفائرها وأخرجت منها الكتاب، فرجعا به إلى رسول الله صلى الله ﷺ ودعا رسول الله حاطبا فسأله: ما هذا يا حاطب؟ فقال: لا تعجل علي يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت ولكني كنت امرءا لصيقا بقريش لست منهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، فأردت أن تكون لي بهذا العمل يد وفضل عليهم يحمون به. أهلي عندهم. فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله اضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله وقد نافق. فقال له الرسول: انه قد شهد بدرا، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم لقد غفرت لكم. فذرفت عينا عمر وقال: الله ورسوله اعلم. وقد نزلت في حاطب الآيات الأول من سورة الممتحنة، وهكذا اخذ الله العيون فلم يصل إلى قريش أي خبر من أخبار مسير المسلمين إليهم وذلك استجابة لدعوة الرسول: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها.

تحرك الجيش نحو مكة:

تحرك الرسول ﷺ بجيش الفتح يوم العاشر من رمضان سنة ثمان وكان العدد عشرة آلاف من الصحابة على رأسهم الرسول ﷺ واستخلف على المدينة ابارهم الغفاري كلثوم بن الحصين (وقيل استخلف ابن أم مكتوم[1] ولما وصل الجحفة لقيه عمه العباس بن عبد المطلب وكان قد خرج من مكة مسلما مهاجراً بعياله إلى المدينة، وعندما وصل الإبواء لقيه ابن عمه

(1) محمد رسول الله ص382 محمد رضا دار الكتب العلمية بيروت.

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمته عبد الله بن أبي أمية فاعرض عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة العداوة فقالت له أم سلمة رضي الله عنها لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك. وقال علي بن أبي طالب لابن عمه سفيان بن الحارث إئت رسول الله ﷺ فقل له ما قال أخوة يوسف ليوسف « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين»

فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً ففعل أبو سفيان ذلك فقال له الرسول {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الرحمين} ثم واصل الجيش سفره حتى نزل بمر الضهران وكان الوقت عشاء فأمر الرسول بأن توقد النيران فأشعلت عشرة آلاف نار، وجعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الحرس. وحتى يعلم الرسول جميع المسلمين الأخذ بالرخص الشرعية فقد افطر بعد أن كان صائما عندما بلغ الكديد، ورفع الإناء حتى يراه الناس فافطر وأفطر الجميع معه. وذهب العباس ين عبد المطلب على بغلة رسول الله ﷺ عله يجد أحدا يخبر قريشا بغزو الرسول لهم حتى يأتوا الله ويطلبوا الأمان تجنبا للقتال وحقنا للدماء فوجد أبا سفيان وبديل بن ورقاء الخزاعي؛ وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فقال بديل هذه خزاعة خمشتها الحرب فقال أبو سفيان: خزاعة اقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. فنادى العباس أبا سفيان قائلاً هذا رسول الله، والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب معي على هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ومر العباس ومعه أبو سفيان راكبين بغلة رسول الله حتى أتيا نار عمر بن الخطاب فقال هذا أبو سفيان بن أمية عدو الله فدعني اضرب عنقه فقد أمكننا الله منه وليس بيننا وبينه عقد ولا عهد فمنعه العباس وانطلق به إلى الرسول فقال له: ويحك يا أبا سفيان: ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئا ثم اسلم وشهد شهادة الحق وبذلك تم إسلام أبي سفيان.

وقال العباس يا رسول الله أن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا. فقال الرسول ﷺ. نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

الاتجاه إلى مكة

وفي صباح يوم الأربعاء السابع عشر من شهر رمضان سنة ثمان غادر الرسول مر

الظهران إلى مكة وأمر عمه العباس أن يحبس أبا سفيان عند مضيق الجبل؛ حتى تمر به القبائل برياتها فيرى قوة المسلمين فكلما مرت قبيلة سأل العباس عنها فيقول: هذه مزينة هذه سليم إلى آخر القبائل، وأبو سفيان يقول: ما لي ولمزينة؟ ما لي ولسليم؟ الخ حتى مر الرسول ﷺ في كتيبة الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال أبو سفيان: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟

فقال: هذا الرسول في المهاجرين والأنصار، فرد أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما. فقال العباس: يا أبا سفيان: إنها النبوة.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبي سفيان قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة. اليوم أذل الله قريشا. ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى ابنه قيس بن سعد، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد وفى رواية دفعه إلى الزبير بن العوام وفى رواية إلى على بن ابى طالب كما قال ابن إسحاق والرواية الأولى أرجح لأن الرسول لا يريد أن يجرح شعور الأنصار

أبو سفيان يحذر قريشا:

أسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ في قريش: لقد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به فمن دخل دارى فهو آمن. فقالوا له ما تغنى عنا دارك؟ فقال ومن اغلق عليه بابه فهو آمن. ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن وقد نقل بذلك قول الرسول إكراما له أمام قومه، وتجمع بعض الرجال من قريش مع عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وحماس بن قيس بالخندق ليقاتلوا المسلمين.

وصول الجيش إلى مكة

مضى الرسول ﷺ حتى انتهى إلى ذي طوى وكان يضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الراحلة. وقد وزع الجيش على النحو الآتي:

خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى وفيها قبائل أسلم وسليم وغفار ومزينه وجهينة وقبائل أخرى من قبائل العرب وأمره أن يدخل مكة من أسفلها وقال إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً حتى توافوني على الصفا.

وكان الزبير بن العوام على المجنبة اليسرى وكان معه راية الرسول ﷺ فأمره أن يدخل مكة من أعلاها من كدا، وان يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر وهم الذين لا سلاح معهم. فأمره أن يأخذ بطن الوادي حتى يكون بين يدي رسول الله.

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريقة التي رسمها لها الرسول فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا قتلوه ومنهم الرجال من قريش الذين اجتمعوا بالخندق كما سبقت الإشارة لمقاتلة المسلمين فلقيهم خالد وأصحابه فقتلوا منهم أحد عشر رجلا فانهزموا وانهزم معهم حماس بن قيس الذي كان يعد السلاح لمقاتلة المسلمين، وليتخذ منهم خدما كما قال لزوجته عندما خرج إلى الخندق، وإذا به بعد الهزيمة يقول لزوجته أغلقي على باب دارى – عملا بنصيحة أبي سفيان على لسان الرسول فقالت له: أين ما كنت تقول من انك ستتخذ منهم خدما فأشد يقول:

انك لو شهدت يوم الخندمةْ :: إذ فر صفوان وفر عكرمةْ
واستقبلتنا بالسيوف المسلمةْ :: يقطعن كل ساعد وجمجمةْ
ضربا فلا تسمع إلا غمغمةْ :: لهم نهيت خلفنا وهمهمةْ
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمةْ.

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى الرسول ﷺ على الصفا وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية الرسول بالحجون عند مسجد الفتح وضرب له هناك قبة، فلم يبرح حتى جاءه الرسول ﷺ

دخول المسجد الحرام وتطهيره من الأصنام:

نهض رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار يحيطون به حتى دخل المسجد فاستلم الحجر الأسود ثم طاف بالبيت، وفى يده قوس. وحول البيت وعليه ثلاث مائة وستون صنما

فجعل يطعنها بالقوس ويقول قد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا {قل جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد} والأصنام تتساقط من وجوهها وكان يطوف على راحلته، ولم يكن محرما يومئذ فاقتصر على الطواف فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة فاخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت فدخلها فرأى فيها الصور، ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان بالأزلام فقال: قاتلهم الله والله ما استقسما بها قط ورأى في الكعبة حمامة من عيدان فكسرها بيده، وأمر بالصور فمحيت.

صلاة الرسول في الكعبة وخطبته في قريش

دخل الرسول ﷺ الكعبة وأغلق عليه الباب ومعه أسامة وبلال فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب، حتى إذا كان بينه وبين الجدار ثلاثة أدرع وقف، وجعل عمودين عن يساره، وعمودا عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ثم صلى هناك ثم دار في البيت وكبر، في نواحيه، ووحد الله ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ينتظرون ماذا يصنع بهم، فاخذ بعضادتي الباب وقال: «لا اله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، إلا كل ماثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانه» البيت وسقاية الحاج، ألا قتيل الخطأ شبه العمد السوط والعصا ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل: أربعون منها في بطونها أولادها يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير}.

ثم قال: يا معشر قريش. ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً: أخ كريم وابن أخ كريم. قال فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم « اذهبوا فانتم الطلقاء» ثم جلس رسول الله ﷺ فقام إليه على كرم الله وجهه ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية، وفى رواية أن الذي قال ذلك هو العباس بن عبد المطلب فقال رسول الله ﷺ أين عثمان بن طلحة؟ فدعى له فقال له. هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء. وفى رواية ابن سعد في الطبقات انه قال له حين دفع المفاتيح إليه: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم. يا عثمان: إن الله استأمنكم على بيته فكلوا ما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف

بلال يؤذن على الكعبة:

وجاء وقت الصلاة فأمر رسول الله ﷺ بلالا رضي الله عنه أن يصعد فيؤذن على الكعبة وكان أبو سفيان بن حرب وعثمان بن اسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة فقال عتاب: لقد أكرم الله اسيدا – والده – ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه وقال الحارث والله لو كنت اعلم انه حق لا تبعته فقال أبو سفيان أنا والله لا أقول شيئا لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء فخرج عليهم الرسول ﷺ فقال لهم: قد علمتم الذي قلتم ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد انك رسول الله، والله ما طلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

صلاة الفتح أو صلاة الشكر

صلى رسول الله ﷺ ثماني ركعات في بيت أم هاني رضي الله عنها، وكان الوقت ضحى فظنها الناس صلاة الضحى وإنما هي صلاة الفتح شكراً لله على ما انعم به من النصر المبين وأجارت أم هاني حموين لها وكان أخوها علي بن أبي طالب يريد قتلهما فأغلقت عليهما الباب وأجارتهما فقال لها الرسول لقد أجرنا من أجرت يا أم هاني واخرج عبد الرزاق عن معمر عن الزهري لما دخل الرسول مكة وأمر خالداً بقتال المشركين طلب منه أن يرفع عنهم السلاح فدخلوا في الدين فانزل الله إذا جاء نصر الله والفتح إلى نهايتها

إهدار دماء أكابر المجرمين

أهدر النبي دم تسعة نفر من أكابر المجرمين وأمر بقتلهم، وان وجدوا تحت أستار الكعبة وهم: عبد بن خطل، وعبد الله بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل كانتا تغنيان بهجو النبي وسارة مولاة بني عبد المطلب، وهي التي كانت تحمل كتاب حاطب بن أبي بلتعة الذي سبقت الإشارة إليه والشاعر كعب بن زهير فاما ابن أبي سرح فجاء به عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ وشفع فيه فحقن دمه وقبل إسلامه وكان قد اسلم من قبل وهاجر ثم ارتد ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بن أبي جهل ففر إلى اليمن، فاستأمنت له امرأة فأمنه النبي فرجع معها واسلم وحسن إسلامه. وقد اسلم كذلك هبار بن الأسود وهو الذي كان قد عرض لزينب بنت الرسول ﷺ حين هاجرت فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها وأما القينتان فقتلت أحداهما واستؤمن للأخرى فأسلمت كما استؤمن لسارة التي كانت تحمل كتاب حاطب وأسلمت. أما ابن خطل فكان متعلقا بأستار الكعبة فاخبر عنه رجل النبي فقال اقتله فقتله وكان ابن الخطل مسلما يجمع الصدقات وقد قتل خادماً معه وهو مسلم لأنه لم يصنع له طعاماً ثم ارتد عن الإسلام وكذلك قتل مقيس بن صبابة وقد قتله نميلة بن عبد الله، وكان مقيس قد اسلم قبل ذلك ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله ثم ارتد ولحق بالمشركين وقد أخرج ابن جرير من طريق بن جرير عن عكرمة أن رجلا من الأنصار قتل أخا مقيس فأعطاه النبي ﷺ الدية فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه فقتله فقال النبي ﷺ لا أومنه في حل ولا حرم وفيه نزل قوله تعالى {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذابا عظيما}[1] كما أهدر دم زهير لهجائه المسلمين ثم اسلم وعفا عنه بقصيدته بانت سعاد.

وكذلك قتل الحارث الذي كان شديد الأذى للرسول ﷺ. قتله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهذا الرجل هو الذي نخس البعير الذي ركبته فاطمة وأم كلثوم فسقطتا عنه وهما مهاجرتان. وأما هبار فقد أسلم كما قتل الحارث بن طلاطل الخزاعي وبذلك يكون عدد الذين قتلوا من هؤلاء التسعة ثلاثة رجال وامرأة فقط مع اختلاف في الروايات ولم يكن صفوان بن أمية ممن أهدر دمه، ولكنه بصفته زعيماً من زعماء قريش فقد خاف على نفسه، وفر، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فأمنه، وكان عمير قد لحق به وهو يريد أن يركب البحر، من جده إلى اليمن فرده – وقال للرسول اجعلني بالخيار شهرين فقال له: أنت بالخيار أربعة أشهر، ثم اسلم قبل المدة المطلوبة، وكانت امرأته قد أسلمت قبله فاقرهما الرسول ﷺ على النكاح الأول[2].

(1) النساء الآية 93 وأسباب النزول ص150.

(2) الرحيق المحتوم ص374

وقد قتل من المسلمين اثنان: أخطآ الطريق وكان في كتيبته خالد بن الوليد وهما: كرز بن جابر الفهرى، وخالد الأشعر من بنى كعب.

وقتل من المشركين بالخندمة أربعة وعشرون قتيلا حسبما جاء بالمغازى للواقدى، عدا من ذكر وهم الثلاثة الذين أهدر دمهم وهذا العدد لا يساوى شيئا أمام جيش تقدر بعض كتب السيرة عدده باثني عشر ألفا يدخلون بلدا مكتظا بالسكان، فلو قتل كل رجل رجلا واحدا لكان العدد آلافا بين الجانبين، إلا أن الرسول ﷺ أراد أن يكون هذا الفتح ابيض لا تراق فيه الدماء لحرمة البيت الحرام فكان له ما أراد وأمن كل من طلب الأمان، وأجار كل من طلب له غيره الجوار.

خطبة الرسول ﷺ يوم الفتح:

خطب الرسول يوم الفتح خطبة جامعة جاء فيها:

ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرمة الله، لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد كائن بعدى، ولم تحل لي إلا ساعة من النهار، لا ينفر صيدها، ولا يعضد عضاها - أي لا يقطع نباتها الرطب الرقيق - إلا الاذخر[1].

لا وصية لوارث، وان الولد للفراش وللعاهر الحجر، ولا يحل لامرأة تعطى من مالها إلا بإذن زوجها، والمسلم اخو المسلم، والمسلمون إخوة، والمسلمون يد واحدة على من سواهم، تتكافأ دماؤهم يرد عليهم أقصاهم، ويعقد عليهم أدناهم، ومشدهم على ضعيفهم، وميسرتهم على قاعدهم. ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين.

ولا حلب ولا جنب[2]. ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا من بيوتهم، وبأفنيتهم، ولا تنكح المرأة على عمتها وخالتها، والبينة على من ادعى، واليمين على من أنكر. ولا تسافر المرأة

---

(1) بعد أن قال له العباس: الا ذخر يا رسول الله فلابد منه للقبور وهو نبات طيب الرائحة.

(2) الجلب: ان ينزل عامل الزكاة بمكان ويطلب من المزكى المجئ إليه وقبل إن يبتعد المزكى بالمال حتى يتعب العامل. ويكون في السباق باب يتبع الرجل فرسه فيزجره حاثا له على الجرى أو إن يجنب فرسا فرسه حتى إذا فتر ركب على الأخر

مسيرة ثلاث إلا مع ذي محرم، ولا صلاة بعد العصر، وبعد الصبح. وأنهاكم عن صيام يومين: يوم الأضحى، ويوم الفطر، وعن لبستين، لا يحتب أحدكم في ثوب واحد يفضي بعورته إلى السماء ولا يشتمل الصماء[1]. وإخالكم الا وقد عرفتموها.

وفي هذه الخطبة أسس التشريع ومكارم الأخلاق.

التأملات والعبر:

1- تشير كتب السيرة إلى أن كثيرا من الصحابة رأوا في بعض شروط صلح الحديبية إجحافاً وبخاصة ذلك الشرط الذي اشترطه سهيل بن عمرو - والذي يمثل جانب المشركين، ومفاده أن من أتى محمدا فاراً من المشركين رده إليهم، ومن أتى من المسلمين إلى المشركين لا يردونه إليه، ورأى بعض الصحابة أن هذا الشرط ليس فيه تكافؤ، كما اغتاظوا اشد الغيظ عندما طلب سهيل بن عمرو من الرسول ﷺ محو كلمة رسول الله وان يثبت بدلها اسم أبيه، عبد الله، ولكن الخير فيما اختاره الله ورسوله فقد أصبح ذلك الشرط وبالاً عليهم حيث كمن الفارون منهم والذين أعادهم الرسول إليهم تنفيذاً للصلح كمنوا –لقوافل المشركين وتجارتهم، فاضروا بهذه التجارة كما فعل أبو بصير. وإذا بقريش التي كانت تعتقد أن ذلك الشرط نصر لها ترى فيه أعظم الخطر وتطلب إلغاءه، أما الذين آمنوا فلم يرجع منهم أحد إلى المشركين؛ لأن من هداه الله إلى الإيمان وأخرجه إلى النور لا يمكن أن يعود إلى الظلام. أما رسالة محمد التي أنكروها فقد أيقنوا إنها الحق. وإذا بالصحابة الذين تلكأوا في التحلل ونحر الهدى قبل أن يبلغوا الكعبة معتمرين حتى خشي الرسول أن تصيبهم فتنة إذا بهم يشهدون النصر المؤزر والفتح المبين الذي آل إليه أمر ذلك الصلح فكان الفتح ثمرة من ثماره.

أما النساء فلم يردهن الرسول ﷺ لقوله تعالى {يا أيها الذين امنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار}[2].

---

(1) الصماء: ان يتجلل بثوبه ولا يرفع منه شيا فيصبح كالصخرة الصماء أو أن يلبس ثوبا واحدا ويرفعه من أحد جانبيه فيضعه على منكبيه فتكشف عورته .

(2) الممتحنة الآية 10 وأسباب النزول ص430

2- عندما بعث الرسول كتابه إلى قبيلة اسلم والتي سبقت الإشارة إليه قال فيه ما نصه: وإن أمرنا وأمركم واحد على ما دهمنا على الناس بظلم. ويجدر بنا أن نقف عند هذه العبارة فالرسول ﷺ لم يلتزم بمناصرتهم إلا إذا كانوا - مظلومين فقط، أما وهم ظالمون فلا مناصرة لظالم، فالمسلم ينصر أخاه إذا كان مظلوما، أما إذا كان ظالماً فمناصرته أن تحجزه عن الظلم، وتمنعه من ارتكابه، وهذا ما يجب أن يكون بين المسلمين، أما أن تجامل ظالماً أو تناصره، فإن هذا هو الظلم بعينه، والذي يأباه الإسلام.

3- أخفى الرسول ﷺ أمر الغزوة، وبالغ في الإخفاء، وأرسل سرية في غير الاتجاه الذي يريده للتعمية والتمويه على قريش، كما فعل عندما اختفى في غار ثوره للتمويه على المشركين أيضاً؛ ليعلمنا احكم الخطط والأخذ بالحزم والاحتياط، والكتمان، وكم أصابت الجيوش من هزائم مردها عدم الأخذ بالسرية، وإهمال جانب الاحتياط والحذر.

4- عفو الرسول ﷺ عن حاطب بن بلتعة على عظم ما أرتكبه من خطأ في إفشاء سر رسول الله ﷺ وهو تجسس وقد كان الرسول ﷺ حليما كل الحلم، ولم يترك له عذراً حيث سأله عن فعلته على الرغم من حالة التلبس التي لا شك فيها، وقد عفا عنه لما له من يد بيضاء حيث شهد بدرا، ومنع عمر بن الخطاب من أن يضرب عنقه وغاية الفضل ألا تنسى فضل الناس، والله تعالى يقول {ولا تنسوا الفضل بينكم}، وإنها لأخلاق النبوة العظيمة، ناهيك عن عفوه عن عبد الله بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية، وإعطائه الأمانة، وإجارته لكل من أجاره مسلم أو مسلمة.

ولعله لم يعاتب العباس على الخروج عله يجد أحدا يحذر قريشاً من مقاتلته جيش المسلمين عندما أتى بأبي سفيان، لأن ما عمل حاطب يؤثر، لأنه كان قبل الغزو بحوالي شهر، أما ما عمله العباس فلا يؤثر لأن بين الجيش وبين مكة مسيرة يومين أو ثلاثة، وهى مدة قصيرة لا تجعل لقريش فرصة كافية للتأهب، وليس أمامها إلا التسليم حقنا للدماء.

5- تسليم اللواء من سعد يدل على رغبة أكيدة في حقن الدماء لما ظهر له فيه من تشدد وحماس، وأراد ألا يكون في مكة قتل ولا سفك دم. أما أمره الذي أصدره لخالد بن الوليد بأن يحصد من يجده من المشركين فلأنه علم أن رجالا من المشركين بسلاحهم في الخندمة للتصدي للمسلمين فكان لا مفر من القتال.

ولحكمة بالغة كانت الخندمة في القطاع المخصص لخالد بن الوليد، والمأمور بحصد من يجده أمامه من المشركين. ولا يعقل أن يتراجع الرسول ﷺ عن فتح مكة لمجرد أن شر ذمة ضالة تقف دون هذا الفتح.

6- تواضع الرسول يوم الفتح فلم يدخله ما يدخل الفاتحين من الغرور بالنصر والغلبة، وعفوه عن من آذوه، فهو القادر على الانتقام منهم، عقاباً على إخراجهم إياه بدون ذنب اقترفه ألا أن يقول ربي الله.

ولو كان الذين أمامه أحفاد الذين أخرجوه لما كان في الأمر عجب لأن الإنسان لا يتحمل ذنب غيره، ولكنهم هم أنفسهم الذين أخرجوه يوم الهجرة، وتآمروا على قتله، فلا تفصلهم عن ذلك اليوم إلا ثماني سنوات فقط، وهو يرى فيهم ذلك ماثلا واضحاً لقرب العهد، ولكنها أخلاق النبوة، تأسى بيوسف عليه السلام: «لا تثريب عليكم اليوم» اذهبوا فانتم الطلقاء. قالها يوسف، وقالها محمد وكلاهما رسول، والله يعلم حيث يجعل رسالاته، كما يعلمنا الرسول رد الأمانات لأهلها عندما رد مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة.

7- كان محمد ﷺ يمنا وخيرا على البيت الحرام: فقد ولد عام الفيل الذي حمى الله فيه بيته من أبرهة ولم يكن بين ذلك اليوم ويوم ميلاده إلا خمسون يوماً، وها هو يعود إلى هذا البيت ليطهره من الشرك والوثنية، ولا يزال الكثيرون ممن شهدوا هزيمة أبرهة أحياء وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا أن محمداً ليس بدعا من الرسل، وان رسالته امتداد لرسالة أبيه إبراهيم فقد كان إبراهيم عليه السلام مأمورا من عند الله بتطهير البيت من الشرك للطائفين والقائمين والركع والسجود وكان محمد ﷺ مأمورا بتطهير هذا البيت من الشرك إلى يوم القيامة، وفي ذلك إشارة إلى التقاء الرسالات السماوية في أصل واحد وهو تثبيت عقيدة التوحيد والقضاء على الشرك والأصنام والوثنية.

8- الرسول ﷺ لا يرضى بالضيم والذل لحلفائه وللمسلمين {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين}[1].

(1) المنافقون من الآية 8.

وقد كانت الغزوة رداً على المشركين في اعتدائهم على حلفاء الرسول، وثاراً لهؤلاء الحلفاء الذين قتلوا ظلماً وغدراً؛ لأن في ذلك استهزاء به وبمن حالفهم فألغى الهدنة وأعلمهم بنقض الصلح الذي لم يحترموه فكانوا هم الذين نقضوا عهدهم وميثاقهم.

غزوة حنين ستة من شوال سنة ثمان

عندما فتح الله مكة على المسلمين دان لهم الجميع، وأيقن الكل بأن الإسلام قد علا وعز ودخلوا في دين الله أفواجا.

وبقيت بعض القبائل - كما هو الحال دائماً - فيها أنفة وغطرسة لم ترضخ للأمر الواقع وفي مقدمة هذه القبائل هوازن وثقيف واجتمعت هذه القبائل تحت أمرة مالك بن عوف النصري وقررت حرب المسلمين.

وسار مالك بن عوف إلى اوطاس وهو واد بهوازن بالقرب من حنين التي هي واد إلى جنب ذي المجاز بينها وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفة.

وكان مالك قد ساق مع الناس نساءهم ومواشيهم وأبناءهم ليكون ذلك ادعى لثباتهم ودفاعهم عن كل ما يملكون واختلف معه دريد بن الصمة وهو شيخ كبير مجرب فقال لمالك أخطأت فيما فعلت، فلا ينفعك في الحرب إلا سيف ورمح فإذا كانت لك لا ينفعك إلا المقاتلون، وان كانت عليك خسرت مالك واهلك، وفضحت فيهم، فلم يأبه لرأيه واتهمه بكبر السن والتخليط.

وأرسل الرسول ﷺ العيون لاستكشاف العدو فور خروجه يوم السبت السادس من شوال وكان ذلك هو اليوم التاسع عشر من يوم دخوله مكة وكان العين الذي أرسله أبا حدرد الاسلمي على أن يقيم فيهم أياما ويأتيه بأخبارهم. وأرسل مالك بن عوف عيونا اخبروه بكثرة عيون المسلمين.

وكان جيش المسلمين مكونا من اثني عشر ألفا منهم ألفان من أهل مكة وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام واستعار الرسول ﷺ من صفوان بن أمية وكان قد اسلم - مائة درع بأدواتها، ولما رجع أبو حردد واخبر الرسول ﷺ بأن هوازن قد خرجت بضعنها - أي نسائها - ونعمها وشائها تبسم الرسول ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله».

ورأى بعض المسلمين إلى الجيش فأعجبته كثرتهم، وقال البعض لن نغلب اليوم، فلم يرق ذلك للرسول ﷺ ولم يرض به.

ووصل جيش المشركين قبل الجيش الإسلامي. وادخل مالك جيشه في الوادي وجعل كل شعب من شعاب الوادي وفى الطرقات كمائن أمرهم بأن يباغتوا المسلمين بالنبال وشدوا عليهم شدة رجل واحد.

بداية الهزيمة:

دخل المسلمون وادي حنين فباغتهم المشركون من كمائنه وأمطروهم بالنبال من كل جانب، فإذا بالمسلمين قد ولوا وهم يسرعون في التراجع لا يلوى أحد على أحد، وكانت الهزيمة حتى قال أبو سفيان وقد اسلم يوم الفتح - لا تنتهي هزيمتهم دون البحر أي البحر الأحمر وصرخ جبله أو كلده بن الجنيد: إلا بطل السحر والساحر.

وانحاز الرسول ﷺ جهة اليمين وهو يقول: هلموا إلى أيها الناس أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، وبقى معه قليل من التابعين وأهل بيته.

وأخذ يقول وهو على بغلته أنا النبي لا اكذب / أنا ابن عبد المطلب وأبو سفيان والعباس آخذان بلجام البغلة يمنعانها أن تسرع ورجع المسلمون إلى الرسول ﷺ وكأنما تذكر المسلمون يوم أحد فرجعوا إلى الرسول ﷺ يتدافعون فلما بلغوا مائة استجابوا لنداء العباس واحتدم الاقتتال ودارت الدائرة على العدو ولما احتدم الاقتتال نظر الرسول ﷺ إلى ميدان المعركة وقال: الآن حمى الوطيس ثم اخذ قبضة من تراب رمى بها في وجوههم وقال: شاهت الوجوه، فكأنما تكرر المشهد الذي كان في بدر.

وبعد رمى القبضة بقليل انكسر العدو وحلت به الهزيمة وغنم المسلمون غنائم عديدة وصدق رسول الله في قوله عندما اخبره أبو حدرد الاسلمى عن جموع المشركين ومواشيهم فقال تلك غنيمة المسلمين.

وتفرق المشركون إلى الطائف ونخلة واوطاس وطارد المسلمون أولئك الفارين وقتلوا منهم أعَدادا وخرج الرسول ﷺ بنفسه ومن معه من المسلمين إلى الطائف لمطاردة فلولهم.

وكانت الغنائم من السبي ستة آلاف رأس وأربعة وعشرون ألفا من الإبل وأكثر من أربعين ألف شاة من الغنم وأربعة آلاف وقية فضة لم يقسمها الرسول ﷺ إلا بعد غزوة الطائف وكانت ضمن السبي الشيماء بنت الحارث السعدية أخت الرسول ﷺ من الرضاع وحاضنته فلما جيء بها وعرفته بنفسها وذكرت له علامة عرفها أكرمها وبسط لها رداءه ثم من عليها وردها إلى قومها.

ما نزل من القرآن في حنين:

اخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن انس قال يوم حنين: لن نغلب من قلة وكانوا اثني عشر ألفا فشق ذلك على رسول الله ﷺ. فانزل الله تعالى {ويوم حنين إذا عجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين}[1]، وكان ذلك تأديبا لمن اعتقد إن النصر بالكثرة وما النصر إلا من عند الله. ويكفي نصرا للإسلام أن الذين كانوا عليه صاروا معه وأيقنوا أن الله ناصر دينه بهم أو بدونهم.

غزوة الطائف

وهي امتداد لغزوة حنين حيث إن معظم فلول الجيش المهزوم لجأت إلى الطائف مع قائدهم وتحصنوا بها فسار إليهم الرسول ﷺ، وتقدمه خالد بن الوليد وقد اسلم – في الطليعة في ألف رجل ومر في طريقه على نخلة اليمانية وقرن المنازل فهدم حصن مالك بن عوف وفرض الحصار على الطائف ودام الحصار في بعض الروايات أربعين يوما وفي بعضها عشرون يوما وفي بعضها ثمانية عشر يوما.

وفي بداية الحصار أصيب المسلمون بجراحات عندما رشقهم المتحصنون وقتلوا منهم اثني عشر رجلا حتى تحولوا إلى مسجد الطائف فعسكروا هناك، ورمى المسلمون الحصن بالمنجنيق فنقبوه ودخل عدد منهم وأرسل العدو سكك الحديد المحماة بالنار، وأمر الرسول

(1) التوبة الآية 25 – 26 وأسباب النزول ص232.

ﷺ بقطع العنب والأشجار كنوع من الضغط عليهم حتى توسلت تقيف بألا يقطعها وأن يدعها لله والرحم فكف عن ذلك.

ونزل عدد من الحصن تلبية لنداء منادئ المسلمين: من نزل من الحصن فهو امن فخرج إليهم ثلاثة وعشرون منهم أبو بكرة الذي ربط بكرة على الحصن وتدلى بها فسماه الرسول ﷺ أبا بكرة، وأمنهم الرسول ودفع كل واحد منهم إلى مسلم يمونه وشق ذلك على أهل الحصن.

ولما طال الحصار قال نوفل بن معاوية الديلى يا رسول الله:

هم ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وان تركته لم يضرك فأمر الرسول ﷺ عمر بن الخطاب بأن يؤذن بالرحيل وقال ﷺ: آيبون عابدون لربنا حامدون ولما قال له المسلمون ادع عليهم: قال: اللهم أهد ثقيفا وآت بهم.

إنسانية الرسول ﷺ ورحمته:

روى عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمر أن وفد هوازن أسلموا وجاءوا للرسول ﷺ يسألونه سباياهم وأموالهم. فقال لهم الرسول ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟

قالوا بل ترد نساءنا وأبناءنا فقال لهم: ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وإذا صليت الظهر بالناس فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك، ولما صلى الظهر قالوا ما أمرهم به فأعطاهم ما كان له وقال المهاجرون ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وكذلك قال الأنصار ووافق الأكثر وامتنعت أقلية فأعطى من تمسك بحقه ست فرائض عن كل إنسان ورد إليهم نساءهم وأبناءهم.

وقد ساق ابن هشام هذه الرواية بعد أن قال وقد اسلموا والذي أراه أن هذا قد وقع قبل دخولهم الإسلام أما وقد اسلموا فكيف يحتفظ الرسول بسبايا وأسرى مسلمين؟

وسأل ﷺ عن مالك بن عوف وطلب من هوازن وثقيف أن يبلغوه انه أن جاء مسلما رد عليه ماله وأهله وجاء فاسلم وحسن إسلامه. وهكذا استجاب الله دعوة رسوله ﷺ فيهم.

قسمة الغنائم:

قسم الرسول ﷺ الغنائم فأعطى المهاجرين وسائر الناس ولم يعط الأنصار فتأثر الأنصار لذلك وأرسلوا إليه سعد بن عباده فأخبره بما يقول الأنصار فقال له ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ فقال يا رسول الله: ما أنا إلا من قومي فقال له الرسول ﷺ اجمع لي قومك، فجمعهم له وجاء معهم رجال من المهاجرين فأذن لهم ولم يأذن لغيرهم من سائر المسلمين واتاهم الرسول ﷺ فحمد الله واثني عليه بما هو أهله ثم قال: يا معشر الأنصار: ما قالة بلغتني عنكم؟ موجدة[1] وجد تموها علي في أنفسكم الم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة[2] فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا بلى، الله ورسوله أمن[3] وأفضل. ثم قال: ألا تجبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: أما الله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا[4] فنصرناك، وطريدا فآويناك. وعائلا فآسيناك[5] أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة[6] من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله في رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا - طريقا بين جبلين - وسلكت الأنصار لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فرضي الأنصار بذلك[7].

ويتبين من هذا الخطاب الكريم أمران:

1- أن الرسول ﷺ قدم الفقراء من المهاجرين كما قدم المؤلفة قلوبهم وهم حديثو العهد بالإسلام لترغيبهم واستمالتهم.

---

(1) الموجدة: العتاب.
(2) عالة: جمع عائل وهو الفقير.
(3) امن: من المنه وهي النعمة.
(4) المخذول: المتروك.
(5) آسيناك: اعطيناك واعناك .
(6) لعاعة: بقلة حضراء ناعمة.
(7) ابن هشام ج2 ص372.

2- أنصف الرسول ﷺ الأنصار فلم يذكر فضله عليهم بل ذكر أيضاً فضلهم عليه، وهو منتهى العدل والإنصاف والمروءة وكرم الأخلاق. كما نلاحظ شجاعة سعد فلم يجامل الرسول بأن يقول هذا ما قالوه وإنما أنا مبلغ فقط بل كان صادقا شجاعا عندما قال إنما أنا واحد منهم. وهكذا هم الرجال الذين تربوا على يد محمد وفى مدرسته السامية يقولون الحق ولا يخشون أحدا.

ويكفى الأنصار فخرا أن يتمنى أن يكون الرسول ﷺ منهم وان يجعل نصيبهم بدلا من الغنائم رضا الله ورسوله، وان يستغفر لهم. ويطلب لهم الرحمة الدائمة.

غزوة تبوك أو العسرة رجب سنة تسع:

بلغ الرسول ﷺ أن الروم قد جمعوا جموعهم تريد غزو بلاده وكان ذلك في عام معسر شديد الحر، والناس في اشد الحاجة لاتقاء الحر وقد نضجت ثمارهم.

وأمرهم الرسول ﷺ بالتجهز وبين لهم المكان على غير عادته لبعد المكان وشدة العدو؛ ليستعدوا لذلك.

واستنفر الجميع وطلب من الموسرين تجهيز الجيش فأعطى عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار وثلاثمائة بعير مجهزة وخمسين فرسا فقال ﷺ اللهم ارض عن عثمان فأني راض عنه، وجاء أبو بكر بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم فقال له الرسول ﷺ. هل أبقيت لأهلك شيئا؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله.

وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بنصف أوقية وجاء العباس وطلحة بمال كثير وتصدق عاص بن عدى بسبعين وسقا[1] من تمر وأرسلت النساء حليهن وساهم الفقراء بما يقدرون عليه، ولم يرد الرسول ﷺ شيئا وان قل وجاء سبعة من فقراء الصحابة يطلبون إليه أن يحملهم فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون فجهز عثمان ثلاثة منهم وجهز العباس اثنين وجهز يامين بن عمرو اثنين.

(1) الوسق حمل البعير ويقدر الوسق بثمان كيلات أي خمسمائة وستين كيلة أو ما يسمى عندنا (مرطة).

وخرج الرسول ﷺ في ثلاثين ألفا وعشرة آلاف فرس ورغم تخلف المنافقين فقد كان هذا الجيش أعظم جيش تالف في العرب وأقام بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة.

وتخلف المنافقون وقال عبد الله بن أبي بن سلول: يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد يحسب أن قتالهم لعب والله لكاني انظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال. وعندما سألهم عمار بن ياسر قالوا إنما كنا نخوض ونلعب وجاء جماعة يعتذرون عن الخروج وجاء إليه المعذرون، واستأذنه كثير من المنافقين فأذن لهم.

ولما مر الرسول ﷺ على آبار ثمود قال لأصحابه: «لا تدخلوا ديار الذين ظلموا إلا وانتم باكون» ليشعر قلوبهم رهبة الله، كما منعهم من الشرب أو الطبخ من مياه آبارهم وهي بالحجر ولما عطشوا أرسل الله سحابة ونزل الغيث فشربوا.

ولحق به أبو خيثمة حيث وجد أهله قد هيأ واله طعاما في ظل رشوه بالماء فقال أ أبقى في الظل ورسول الله في الحر، فلحق به.

وحدث أن تخلف بعض الناس فكلما تخلف أحد قال لهم الرسول ﷺ اتركوه فإن يك فيه خير فسيلحق بكم وإلا فقد أراحكم الله منه. وكان من ضمن هؤلاء أبو ذر الغفاري «جندب بن جناده»، ولما أعياه طلب بعيره حمل رحله على كتفه ولحق بالرسول فلما رآه قال ﷺ يرحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده «وصدق رسول الله ﷺ فقد توفي بالربذة من قرى المدينة وليس معه إلا امرأته وغلامه» ولم يحدث في هذه الغزوة قتال.

هدم مسجد الضرار:

بعد رجوع الرسول ﷺ إلى المدينة جاءه عدد من المنافقين وطلبوا منه أن يصلي في مسجد أقاموه بقباء وقد اتخذوه للاستهزاء بالرسول والمسلمين فأمر الرسول ﷺ بهدمه وهو مسجد الضرار. وفي هذه السنة مات عبد الله بن أبي بن أبي سلول وجاء ابنه عبد الله طالبا من الرسول ﷺ أن يصلي عليه قائلا إن لم تصل عليه فلن يصلي عليه مسلم ومانع عمر بن الخطاب ولكن النبي ﷺ أراد أن يصلي عليه إكراما لابنه وأن الله خيره بين أن يستغفر لهم أو لا يستغفر فاختار الاستغفار ويروى أن عبد الله بن سلول طلب من الرسول ثيابه ليكفن فيه فأرسل إليه ثيابه الخارجية فقال أريد الداخلية التي تباشر جسمك فأرسلها إليه ولما اعترض عمر وسمى

له مواقف هذا المنافق قال له الرسول ﷺ: إن ثيابي لن يغنى عنه شيئا، ثم نهى الرسول فلم يصل على أحد منهم.

ما نزل من القرآن في تبوك:

أغلب آيات سورة التوبة نزلت في هذه الغزوة ابتدأ من الآية 38 {يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل} وهذه الآيات التي تشير إلى هذه الغزوة هي 38، 39، 41، 43، 49، 50، 53، 65، 74، 81، 84، في عبد الله بن أبي وقد نهى الله عن الصلاة عليهم، 91، 102، 107، في مسجد الضرار 117. فليرجع إليها من أراد في أسباب النزول وفيها تفاصيل هذه الغزوة كاملة.

ومن العبر في هذه الغزوة:

1- وجوب تنفيذ أمر الرسول ﷺ مهما كانت الصعوبات فقد غضب الله على المنافقين الذين قالوا لا تنفروا في الحر ورد عليهم بقوله {قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون}[1].

2- وجوب بذل المال لحماية الإسلام وتجهيز الغزاة كل على قدر جهده فالجهاد بالمال كالجهاد بالنفس ومن جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا.

3- الأمر كله لله، وما النصر إلا من عنده، فقد نعى الله على المنافقين لهوهم ولعبهم واستهزاءهم بالمسلمين وإعظامهم للعدو.

حجة الوداع:

بعد أن بلغ الرسول ﷺ رسالة ربه وجاهد في الله حق جهاده، وفتح الله عليه مكة، واراه ثمار جهاده فصارت الوفود تتوالى من جميع النواحي بلغت هذه الوفود ما يزيد على سبعين وفدا وفى كل لقاءات الرسول ﷺ بهذه الوفود كان يلقى الحكمة والموعظة الحسنة، والتشريع وأسس مكارم الأخلاق في كل ما يقول وما يأتي وما يدع، وتزخر كتب السيرة بالكثير من

(1) التوبة من الآية 81 وأسباب النزول ص248.

هذه المواقف الباهرة. وبعد أن دخل الناس في دين الله أفواجا بالفتح الأعظم حتى أيقن المكابرون أن لا جدوى من مكابرتهم وإنكارهم، وان الله قد اظهر دينه ونصر عبده، وقد حفت به العناية الإلهية في أحرج الظروف، وأحلك الساعات، وذهب مكرهم هباء وزلزل الله أعداءه وشتت جموعهم من مشركين ويهود فلم تغن عنهم كثرتهم ولا حصونهم من الله شيئا.

وبعد أن علا نجم الإسلام وعم نوره إرجاء الجزيرة العربية وبدا نوره يزحف ليشمل مناطق على تخوم الجزيرة.

بعد هذا شعر ﷺ بدنو الأجل حتى انه قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أرسله قاضيا إلى اليمن سنة عشرة يا معاذ انك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري، فبكى معاذ وقد تألم لفراق رسول الله ﷺ وصدق الرسول فقد التحق بالرفيق الأعلى ومعاذ رضي الله عنه باليمن فمر على مسجده وقبره ﷺ وهو يبكى ولا تزال كلماته ﷺ في قلبه.

وأعلن ﷺ عن إحرامه فقدم المدينة كثيرون حتى إن بعض المصادر قدرته بتسعين ألفا، واختلفت مصادر السيرة وكتب الفقه في وصف إحرامه فمنها من قال أهل بالإفراد ومنهم من قال بالقران واختلفت الروايات عن إحراق. وذلك كله للتيسير على المسلمين فلم ينه أحداً عن الأخذ بأي نوع من أنواع الإحرام شاء وغادر المدينة يوم السبت لأربع بقين من ذي القعدة[1] ودخل مكة ضحى من الثنية العليا وهى ثنية كدا.

وطبق إمام المسلمين عمليا مناسك الحج والعمرة فمن حضره فقد حضره ومن لم يحضره فقد سمع ممن حضر وحتى تواتر ما فعله وما اقره فهو القائل خذوا عنى مناسككم، وحدث للحجيج أمور كثيرة سألوه عنها فأجابهم ودونتها كتب السيرة وكتب الفقه وتناقلها المسلمون جيلا عن جيل.

ولم يحج ﷺ إلا حجة الوداع، أما العمرة فقد اعتمر أربع مرات كما تشير المصادر. وتشاء الحكمة الإلهية أن يقع في حجة الوداع الكثير من المشكلات التي اوجد لها الرسول ﷺ حلا في ظل الإسلام.

(1) وفى بعض المصادر لخمس بقين من ذى القعدة وما اثبتناه هو ما اثبته ابن حجر في فتح البارى.

خطبة الوداع

في التاسع من ذي الحجة توجه إلى عرفات فخطب خطبته الشاملة وتقول بعض المصادر أن الذين حضروا هذه الخطبة مائة وأربعة وعشرون ألفا وفى بعض الروايات مائه وأربعة وأربعون ألفا.

وهذا نص الخطبة:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، واشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، واستفتح بالذي هو خير، أما بعد أيها الناس، استمعوا منى أبين لكم فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس أن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت اللهم فاشهد فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من أتمنها عليه، إن ربا الجاهلية موضوع وان أول ربا ابدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وان دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدا به دم عامر بن ربيعة بن الحارث، وأن مئاثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية، والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس أن النسيئ[1] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض، وأن عدة الشهور اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متتالية وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

---

(1) النسيء: كان العرب يحلون المحرم ويحرمون صفر حتى لا تطول مدة الأشهر الحرم فنهوا عن ذلك.

أيها الناس أن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق أن لا يؤطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيتكم ألا بإذنكم، ولا يأتين الفاحشة فإن فعلن فإن الله إذن لكم أن تعضلوهن، وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا، ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون أخوة ولا يحل لأمريء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد فلا ترجعن بعدئ كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فأني قد تركت فيكم ما أن أخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس أن ربكم واحد وأن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل علئ عجمي إلا بالتقوئ ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيته ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعئ إلئ غير أبيه أو تولئ غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل.

والسلام عليكم ورحم الله، وفئ هذا اليوم نزل قوله تعالئ: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}[1].

وروئ أن أبا بكر لما سمع الآية بكئ وقال هذا نعئ الرسول ﷺ وبعد رجوعه ﷺ من حجة الوداع بعث أسامة بن زيد إلئ الشام وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من ارض فلسطين فتجهز الناس واوعب مع أسامة المهاجرون والأولون. وهو آخر بعث بعثه ﷺ. وأنفذ أبو بكر هذا الأمر بعد التحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلئ.

وكانت جملة الغزوات التي غزاها بنفسه سبعا وعشرين قاتل في تسع: بدر، أحد، الخندق

(1) المائدة الآية 3.

وقريظة والمصطلق، وخيبر والفتح وحنين والطائف. وهذا ما أثبته ابن هشام، والواقع أن غزوة الفتح لم يحدث فيها قتال بالمعنى الصحيح أما السرايا فبلغت ثمانية وثلاثين[1].

بداية شكوى الرسول ﷺ:

عندما كان أسامة بن زيد يتهيأ للخروج ابتدأ الرسول ﷺ يشكو الوجع في ليال بقين من صفر وأوائل ربيع الأول، وكان آخر ما فعله انه خرج إلى بقيع الغرقد في جوف الليل فاستغفر لهم ثم رجع وألم به المرض في صباح ذلك اليوم وأراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم نبيه ﷺ فاختار له الدار الآخرة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وكان ذلك يوم الاثنين اثنا عشر من شهر ربيع الأول في السنة الحادية عشرة وقد قام في المدينة عشر سنوات.

اللهم شفعه فينا و ﷺ تسليما كثيرا.

ما قيل في الغزوات ومراثي الرسول ﷺ:

الغزوات:

كان حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر الرسول ﷺ، وقد سجل في شعره كثيرا من المشاهد والغزوات فهو شاهد عيان، وهو وان لم يناصر الدين بسيفه - لإصابته بعرق النساء - أو لجبنه كما في بعض الروايات فكان يتخلف مع النساء إلا إنه ناصره بلسانه فكان يرد على من يهجو الرسول ﷺ والمسلمين وكان الرسول يقول له: « اهجهم وروح القدس معك. وكان أبو بكر رضي الله عنه يدله على معايب القوم ومثاليهم».

وقال فيه أبو عبيدة. فضل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام وقال فيه الحطيئة: ابلغوا الأنصار أن شاعرهم أشهر العرب حيث يقول: يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسالون عن السواد المقبل.

(1) ابن هشام ج4 ص451.

وشهد له النابغة لما سمعه في الجاهلية فقال له: انك لشاعر[1]، وقد حوي ديوانه مائتين وتسعا وأربعين قصيدة معظمها في مدح الرسول ﷺ ورثائه ورثاء بعض الصحابة وهجاء المشركين وذكر الغزوات

ما قال في غزوة بدر:

قال يهجو الحارث بن هشام شقيق أبي جهل فقد قتل أخوه وفر هو من المعركة:

يا حار قد عولت غير معول ... عند الهياج وساعة الاحساب[2]
إذ تمتطى سرج اليدين نجيبة ... مرطى الجراء خفيفة الأقراب[3]
والقوم خلفك قد تركت قتالهم ... ترجو النجاة فليس حين ذهاب[4]
هلا عطفت على ابن أمك إذ هوى ... قصص الأسنة ضائع الأسلاب[5]

وقال يوم بدر أيضاً في قتلى بدر من المشركين من أمثال منبه بن الحجاج وغيره:

خابت بنو أسد وآب عزيزهم ... يوم القليب بسوءة وفضوح[6]

وقال يصف انتصار المسلمين يوم بدر:

ألا ليت شعرى هل أتى أهل مكة ... إبارتنا الكفار في ساعة العسر[7]
قتلنا سَرَاة القوم عند رحالهم ... فلم يرجعوا الا بقاصمة الظهر[8]
قتلنا أبا جهل وعتبة قبله ... وشيبة يكبو لليدين وللنحر[9] ...الخ

---

(1) مقدمة ديوان حسان ص6- دار بيروت .

(2) عولت: وطنت نفسك على الفرار، غير معول: غير مجد فرارك وحار ترخيم حارث .

(3) سرح اليدين: سريعة العدو بخيبة: كريمة. وطى الجراء: سريعة الجرى. الأقراب: الخواصر.

(4) ليس جبن هاب: ليس الوقت وقت فرار وذهاب.

(5) قعص الأسنة: قتيل السنة. ديوان حسان ص24.

(6) ديوانه ص46 .

(7) ابارننا: من اباره أهله (2) قاصمة الظهر: الداهيه. (3) يكبو: يسقط. ديوانه 106.

(8) ديوانه148. (5) المبير: المهلك

(9) الحارثية عمرة بن علقمه: حملة اللواء بعد إن قتل حاملوه الواحد بعد الآخر. الجلائب ما يجلب للبيع.

وقال يصف شهداء بدر:

وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم ظلال المنايا والسيوف اللوامع
دعا فأجابوه بحـــق وكلهـــم مطيع له في كل أمر، وسامـــع
لأنهم يرجون منـــه شفاعـــة إذا لم يكن إلا النبيون شافـــع

إلى أن يقول:

ونعلم أن الملـــك لله وحـــده وإن قضاء الله لابـد واقـــع[1]

وقال يوم أحد.

أقمنا لكم طعنا مبيـــراً منكـلا وحزنا كم بالضرب من كل جانب[2]
ولولا لواء الحارثيـة أصبحـــوا يباعون في الأسواق بيـــع الحلائب
يمصون أرصاف السهام كأنهم إذا هبطوا سهـــلا وبارشـــوازب
نفجئ عنا الناسى حتـى كأنمـا يلفحهم جمر مـــن النار ثاقـــب

وقال يوم أحد أيضاً يهجو المشركين وقد حمل لواءهم أحد العبيد يقال له:

صؤاب:

فخرتم باللواء وشـــر فخـــر لواء حيـــن رد إلى صـــؤاب
جعلتم فخركـــم فيه لعبـــد من الأم مـــن يطا عفر التراب

وقال يوم أحد أيضاً:

وقد ضاربت فيه بنو الأوس كلهم وكان لهم ذكـــر هناك رفيـع
وحامى بنـو النجار فيه وضاربـوا وما كان منهم في اللقاء جـزوع
أمام رســـول الله لا يخذلونـــه لهم ناصر من ربهـــم وشفيع

(1) الارصاف: جمع رصفة: العقبه تاوى فوق السهم إذا انكسر. الوبار جمع وبر: دويه صغيرة. شوازب: عجاف وفي البيت اقواء لمخالفة النعت المنعوت.

(2) نفجئ: ندفع ديوانه ص18وفي هذا البيت اقواء أيضاً. (9) العفر التراب بين الغبره والحمره ص87

وفوا أذكرتم ياسخيـــــن بربكـــم ولا يستوي عبد عصىٰ ومطيع[1]

وقال يرثي أصحاب الرجيع:

صلىٰ الإله علىٰ الذيـــــن تتابعـــوا يوم الرجيع فأكرموا واثيبوا
رأس الكتيبة مرثـــد وأميرهـــــم وابن البكير أمامهم وخبيب
وابن لطـــارق وابن دثنة فيهـــم وافاه ثم حمامه المكتـــــوب
منع المقـــــادة أن ينالـــوا ظهـره حتىٰ بجالد انه لنجيـــب[2]
والعاصب المقتول عند رجييعهم كسب المعالي إنه لكسـوب

وقال يوم الخندق في مصرع عمرو بن ود عندما قتله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

أمسىٰ الفتىٰ عمرو ابن ود ثاويا مجنوب سلع ثـاره لم ينظـــر[3]
ولقد وجدت سيوفنا مشهـورة ولقد وجدت جيادنا لم تقصر
أصبحت لا تدعىٰ ليوم عظيمة ياعمر أو لحسيم أمر منكـــر

وقال في غزوة بنىٰ قريظة

لقد لقيـــــت قريظة ما سئآها وما وجدت لـــــذل من نصيـــر
أصابهـم بـــلاء كـــان فيهـــــم سوىٰ ما قد أصـاب بنىٰ النضير
غداة اتاهمـوا يهـــوىٰ إليهـــــم رسول الله كالقمر المنير[4] الخ.

ولولا خشية الإطالة لاستمرت بنا الرحلة مع هذا الديوان الذي يسجل تلك المواقف البطولية الرائعة، فليرجع إليه من شاء ففيه قصائد تصف اغلب الغزوات، وشهدائها.

(1) سنحين: مرخم سنحين: طعام من دقيق وتمر عير قريشا باكلها اياه ديوانه ص150.
(2) المقادة: الانقياد والذل. ديوان 18.
(3) سلع جبل قرب المدينة ديوان ص107.
(4) ديوانا ص128. وسأ ها: اراد ساءها.

مراثي الرسول ﷺ:

ما قال فيه أبو بكر رضي الله عنه:

اعتيق ويحك أن خلك قد ثوىٰ ... والصبر عندك ما بقيت يسير
يا ليتني من قبل فرقة صاحبي ... غيبت في لحد عليه صخور
فلتحدثن بدائع من بعده ... تعيا بهن جوانح وصخور[1]

رثاء حسان للرسول ﷺ:

ما بال عينك لا تنام كأنما ... كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا علىٰ المهدي أصبح ثاويا ... يا خير من وطئ الحصىٰ لا تبعد
جنبي يقيك الترب لهفي ليتني ... غيبت قبلك في بقيع الغرقد
بأبي وأمي من شهدت وفاته ... في يوم الاثنين النبي المهتدىٰ[2]
فظللت بعد وفاته متبلدا ... يا لهف نفسي ليتني لم أولد[3]

وقال:

كنت السواد لناظري ... فعمىٰ عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت ... فعليك كنت أحاذر[4]

وقد حوي الديوان قصائد كثيرة اثبت بعضها ابن هشام في السيرة النبوية.

(1) المستطرف ج2ص589 شهاب الدين الابشيهىٰ.
(2) ودفن ليله الاربعاء.
(3) القصيده طويله جدا فليراجع ديوانه ص57 وما بعدها.
(4) ص94 والبيت الاخير مثل سائر.

قصيدة في مدح الرسول ﷺ[1]:

كفاه عن مدحنا ما قال بارؤنا:

نـور بـه يهتـدي الماضـون في الظلـم ... بعـد الـضلالة في الأفكـار والـنظم
لا ينظـر المـرء إلا تائهـا جنحـت ... بـه الـضلالة للآثـام واللمـم
تـراه يجثـو عـلى العـزى يقبلهـا ... كأنـه صـنم يجثـو عـلى صـنم
للبنـت وأد ونـار الحـرب مولعـة ... فالـسيف حـل محـل الـرأي والقلـم
أعـمال ذي نهـم: بـالبطش، ذي سـأم ... بـالحق ذي سـقم بالقلـب والـشيم
حتـى أضـاءت عـلى الأكـوان بارقـة ... شعت على موطن الإعراب والعجـم
محمـد ارجـع الـدنيا لفطرتهـا ... وفث في الشرك فـث المـاء في الـضرم
ما عاش يوما على ضـيم ولا نقـضت ... يـداه عهـدا ولا أمـسى عـلى نـدم
في غايـة الطهـر لا لهـو ولا عبـث ... كأنـه محـرم في سـاحة الحـرم
كفـاه عـن مـدحنا مـا قـال بارؤنـا ... في سـورة الـنجم أو في سـورة القلـم
يـا رحمـة عمـت الـدنيا بأكملهـا ... ما زال يسرى سناها غير منجذم[2]
صلى عليك بديع الكـون مـا سـكنت ... نفـس إلى مهـبط القـرآن والحـرم
ما نور البـدر للسارى ومـا سـطعت ... شمس وما نورت في الكون من إكـم

(1) المؤلف.

(2) السنا: الضوء، منجذم: منقطع.

الخاتمة

الحمد لله الذي أعان، فعشنا رحلة هادئة مطمئنة، واقتبسنا من نور السيرة العظيمة ما ينير الطريق ويهدئ إلى سواء السبيل. وسيرة الرسول ﷺ وحياته كلها تشريع وأحكام ودروس وعظاة وعبر، فما أحرئ المسلمين بتفهمها والسير على نهجها. وقد ظهرت لنا من خلال هذه السيرة شجاعة الرسول الكريم وكمال أخلاقه

وقد أشرت في المقدمة إلى أنني سأشير إلى بعض الجوانب من السيرة: وقد أشرت إلى السرايا التي سبقت بدرا ولم اشر إلى ما حدث بعدها من سرايا؛ لكثرة عدد هذه السرايا والوفود، وعسى أن تتاح الفرصة إن شاء الله تعالى لتدارك ما فات إذا سمحت الظروف؛ لما في الوقت الآن من صوارف وعدم ملائمة.

والله أدعو أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم انه نعم المولى ونعم النصير.

المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم.

2- ابن جزئ الكلبئ: التسهيل في علوم التنزيل / الدار العربية للكتاب.

3- ابن الجوزئ: تاريخ عمر بن الخطاب / دار الرائد العربي بيروت.

4- ابن هشام: السيرة النبوية / دار التراث العربي بيروت.

5- أبو زهرة: خاتم النبيئين / المكتبة العصرية بيروت.

6- احمد النبداق: هداية الرحمن لألفاظ القرآن / دار الأفاق الجديدة بيروت.

7- احمد دجلان: السيرة الحلبية / دار الفكر بيروت.

8- البوطئ: فقه السيرة / دار الفكر بيروت.

9- حسان بن ثابت: ديوان حسان / دار بيروت للطباعة.

10- الحمصئ: تفسير وبيان / دار الرشيد.

11- الشوكافئ: در السحابة في مناقب الصحابة / دار الفكر.

12- السيوطي: الإتقان في علوم القرآن / المطبعة الأزهرية.

13- السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول / دار الرشيد.

14- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير / الدار التونسية للنشر.

15- الطاهر الزاوي: ترتيب القاموس المحيط / عالم الكتب بيروت.

16- محمد إسماعيل النجاري: صحيح البخاري / مطابع الشعب.

17- محمد الخضري: نور اليقين / مكتبة الإيمان مصر.

18- محمد رضا: محمد رسول الله / دار الكتب العلمية بيروت.

19- محمد رشيد رضا: تفسير المنار / دار المعرفة بيروت.

20- محمد عمر الواقدي: المغازي / مؤسسة الاعلمي بيروت.

21- مسلم بن حجاج: صحيح مسلم / مكتبة فياض.

22- عائشة عبد الرحمن: نساء النبي / دار الهلال.

23- عبد الرحمن المبار كفوري: الرحيم المختوم / المكتبة القيمة.